منزلة البديع من البلاغة

بقلم الدكتور

حسينى على عطوه على الزهيرى

مدرس اللغة العربية الأول بالأزهر الشريف

بسم الله الرحمن الرحيم

إن عبقرية العرب تتمثل فى لغتهم وأساليبهم. فالجاحظ يصف لغة العرب، وحديث الأعراب مزهوا فيقول: "ليس فى الأرض كلام هو أمتع، ولا آنق، ولا ألذ فى الأسماع، ولا أشد اتصالا بالعقول السليمة، ولا أفتق للسان، ولا أجود تقويما للبيان، من طول استماع حديث الأعراب العقلاء الفصحاء، والعلماء البلغاء"(١)، ثم يتحدث عن البديع خاصة فيقول: "والبديع مقصور على العرب، ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة، وأربت على كل لسان"(٢)، فتميزت لغتنا العربية بالجمال والكمال.

(١) البيان والتبيين للجاحظ، جـ١ صـ١٤٥، تحقيق / عبدالسلام محمد هارون، الشركة الدولية للطباعة، سنة ٢٠٠٣م.
(٢) المصدر نفسه ، جـ٤ ، صـ٥٥ .

منزلة البديع من البلاغة

بقلم الدكتور
حسينى على عطوه على الزهيرى
مدرس اللغة العربية الأول بالأزهر الشريف

المقدمة

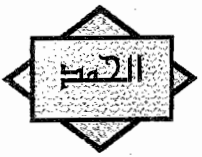

لله بديع السموات والأرض، والصلاة والسلام على نبيه المبعوث بجوامع الكلم، محمد سيد العرب والعجم، وأفصح من نطق بالضاد فيما مضى، وفيما بقى من الزمن ٠

أما بعد

فإن أحق ما تصرف إليه العناية، وتنصرف إليه الهمة هو العلم بمناقب الدرس البلاغى وآفاقه، حتى يتربى لدى الدارس البلاغى الذوق الأدبى الذى يساعد على قبول جيد الكلام والتعليل له، ورد رديئه والوقوف على مظان الخطأ فيه ٠

ولقد كانت لى رغبة ملحة منذ فترة طويلة فى أن أبحث جانبا من هذه المناقب، وترددت فى أى الجوانب أبحث؟ فكلها جوانب غزيرة نافعة، ذات معين لا ينضب على مر العصور والأوقات، وزاد ترددى وإشفاقى على نفسى من الوقوع فى خطأ ــ ولو عن غير قصد ــ وطال التردد والإشفاق حتى طرحتهما، مقنعا النفس بأن القصد شريف، والنية هى البحث والمعرفة المفيدة، ووقع الاختيار على موضوع بعنوان: "منزلة البديع من البلاغة"٠

دوافع البحث:

كان سر اختيارى لهذا البحث يرجع إلى عدة دوافع، أهمها:

أولا: ما فى البديع من إجمال يضفيه على العبارة النثرية، أو القصيدة الشعرية، فتسنم به ذروة البلاغة، حتى عده قوم وجها من وجوه الإعجاز فى القرآن الكريم، ومنهم الدكتور/ عبدالقادر حسين[1].

ثانيا: قضية التحسين البديعى قضية شائكة ، فيها تحقيق للإمتاع الذهنى، وترفيه للنفس، لما لها من أثر فى جلال المعنى وجمال اللفظ.

ثالثا: عدم دقة المتأخرين فى حكمهم على البديع، حيث وضعوه فى مكان غير لائق به، مما دفعنى إلى إنصافه حتى يقف شامخا بين علوم البلاغة الثلاثة .

خطة البحث:

اقتضت طبيعة البحث أن أقسمه إلى مقدمة، وتمهيد، وثلاثة فصول، وخاتمة، وفهارس.

المقدمة: وفيها ذكرت أهمية الموضوع، وسبب اختياره، وخطته، ومنهجه.

الفصل الأول: تطور علم البديع .

الفصل الثانى: منزلة البديع من البلاغة.

الفصل الثالث: البديع بين الحسن الذاتى والحسن العرضى.

الخاتمة: وذكرت فيها أهم ما توصلت إليه من هذا البحث.

الفهارس: وتشتمل على ما يلى:

١ - القرآن الكريم. ٢ - الحديث الشريف.

---

(١) فن البديع، صـ٣٨، للدكتور/ عبدالقادر حسين، ط أولى، دار الشروق، ١٩٨٣م.

٣ - الأمثال العربية. ٤ - الشعر. ٥ - الموضوعات.

منهج البحث:

استخدمت فى هذا البحث المنهج الدراسى التحليلى، حيث قمت بما يلى:

أولا: دراسة تطور البديع من النشأة إلى الكمال، مما نتج عنها أن البديع شأنه شأن أى كائن حى ينمو ويتطور.

ثانيا: إثبات مكانة البديع من البلاغة بالدليل والبرهان، حيث قمت بالرد عل من لم يضع البديع فى مكانه اللائق به، ويجعله تابعا للبلاغة، وذيلا من ذيولها، وذنبا من أذنابها، وذلك بعرض أقوالهم، وتحليلها، والرد عليها، ثم بتحليل بعض النماذج من التراث الأدبى، والنظرة إليها نظرة منصفة تبين من خلالها أن البديع من البلاغة فى الصميم.

ثالثا: تحقيق ما قاله البلاغيون فى الحسن الذاتى والعرضى، ومدى انطباق ما قالوه على المحسنات البديعية، ومن خلال هذا التحقيق والتحليل لبعض النماذج الأدبية أثبت أن البديع يعود على الأسلوب بالتحسين الذاتى لا العرضى، ما دام مقياس الذاتية والعرضية عند العلماء هو اقتضاء المقام أو عدم اقتضائه.

وقد راعيت الأمور التالية:

١ - عزوت الآيات القرآنية إلى سورها، وذكرت اسم السورة، ورقم الآية منها.

٢ - خرجت الأحاديث من مصادرها الأصلية.

٣ - عزوت الأبيات الشعرية إلى قائليها.

وبعد: فما كان من صواب وسداد فمن الواحد المنان، وما كان من خطأ فمن السهو والنسيان. والله أسأل أن يلبس هذا البحث ثوب القبول، إنه ـ سبحانه ـ أفضل مأمول، وأكرم مسئول، إنه نعم المولى ونعم النصير.

دكتور/ حسينى على عطوه الزهيرى

٣ من صفر ١٤٢٩هـ

١٠ من فبراير ٢٠٠٨م

تمهيد

الجدير بالذكر قبل الخوض معكم فى البحث هو تحديد كلمة "البديع" فى عرف اللغة ثم فى عرف البلاغيين، ليكون ذلك تبراسا يضئ الطريق، ودستورا يعصم من الشطط.

قال صاحب اللسان: بدع الشئ يبدعه بدعا وابتدعه: أنشأه وبدأه.. والبدعة: الحدث وما ابتدع من الدين بعد الإكمال. وقال أبوعدنان: المبتدع: الذى يأتى أمرا على شبه لم يكن ابتدأه إياه، وفلان بدع فى هذا الأمر: أى أول، لم يسبقه أحد، ويقال: ما هو منى ببدع، وبديع، قال الأحوص:

فخرمت فانتمت فقلت: انظرينى ∴ ليس جهل آتيته ببديع

والبديع : المحدث العجيب، والبديع: المبدع، وأبدعت الشئ: اخترعته لا على مثال. والبديع: من أسماء الله تعالى لإبداعه الأشياء وإحداثه إياها والله تعالى ــ كما قال ــ بديع السموات والأرض.

وأبدعت الإبل : بركت فى الطريق من هزال، أو داء، أو كلال، قال ابن برى: شاهده قول حميد الأرقط:

لا يقدر الحمس على جبابه
إلا بطول السير وانجذابه
وترك ما أبدع من ركابه

وفى الحديث: أن رجلا أتى النبى ــ ﷺ ــ فقال: يا رسول الله: إنى أبدع بى فاحملنى، أى انقطع بى لكلال راحلتى .. كأنه قد جعل انقطاعها عما كانت مستمرة عليه من عادة السير إبداعا، أى إنشاء أمر خارج عما اعتيد منها[1].

وهكذا رأينا من تتبع استعمالاتها ــ كلمة البديع ــ فى اللغة أنها تدور حول معنى واحد هو: الجديد، والمحدث، والمخترع.

---

(١) لسان العرب لابن منظور، مادة "بدع"، والقاموس المحيط صـ٦٣٢ ، وأساس البلاغة ١/ ٣٦ .

وأما البديع فى مصطلح علماء البلاغة فقد عرفه الخطيب القزوينى بقوله: "علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة ووضوح الدلالة"(١).

والعلاقة بين المعنى الاصطلاحى والمعنى اللغوى واضحة جدا، وذلك أن الجديد، أو المحدث العجيب، أو المخترع، من شأنه أن يكون فيه حسن وبهجة وطرافة وروعة، وبهاء ورواء، ولذة متاع.

وإذا استعرضنا ألوان الكلام التى أطلق عليها المحدثون اسم البديع أو اللطيف، ألفيناها تكسب الكلام حسنا وجمالا ، وتخلع عليه بهجة وجدلا، مما جعل بين المعنى الاصطلاحى واللغوى رحما قريبة، وصلة وشيجة سوغت التسمية وجوزت الإطلاق(٢).

(١) كتاب (متن التلخيص) ،للخطيب القزوينى صـ٦٦ ، المطبعة الجمالية بحارة الروم بمصر.

(٢) الصبغ البديعى فى اللغة العربية، صـ١٤ الدكتور/ أحمد إبراهيم موسى، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر بالقاهرة، ١٩٦٩م.

الفصل الأول
تطور علم البديع

تطور البديع

لم يكن مصطلح "البديع" معروفا فى العصر الجاهلى، أو فى صدر الإسلام، وإنما كان وليد فترة أغرم فيها المحدثون بتتبع فنون البديع فى الشعر العربى، والنسج على منوالها، فأكثروا من هذه الفنون فى أشعارهم حتى سموها باسم "البديع"، وذلك فى القرنين الثانى والثالث الهجريين .

ولعل الجاحظ كان أول من اعتنى بالبديع وصوره، وأطلقه على فنون البلاغة المختلفة، ولكنه لم يعرفه أو يشير إلى فنونه، بل كان يطلق هذا المصطلح إطلاقا، حتى وصل إلى إصدار أحكام عامة ترفع من شأن البلاغة على حساب اللغات الأخرى من مثل قوله: "والبديع مقصور على العرب، ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة، وأربت على كل لسان"(١).

ثم بدأت بعد الجاحظ وأمثاله مرحلة جديدة من مراحل البحث البلاغى فى القرن الثالث الهجرى، وهى بداية استقرار البلاغة العربية، وذلك بتأليف كتاب البديع لابن المعتز (ت٢٩٦هـ)، وهذا الكتاب ثمرة من ثمار المعركة الأدبية، التى احتدمت بين أنصار القديم، وأنصار الحديث فى العصر العباسى، حيث إن ابن المعتز يعلن فيه عن هدفه منذ السطور الأولى، وهو: أن يثبت للمحدثين ممن يجرون وراء الفلسفة، ويتكلفون استخدام البديع. أنهم لم يخترعوا البديع الذى يلهجون به، فيقول: "قد قدمنا فى أبواب كتابنا هذا بعض ما وجدنا فى القرآن واللغة، وأحاديث الرسول ـ ﷺ ـ وكلام الصحابة، والأعراب وغيرهم، وأشعار المتقدمين، من الكلام الذى سماه المحدثون "البديع" ليعلم أن بشارا، ومسلما، وأبا نواس ومن حاكاهم، وسلك سبيلهم، لم يسبقوا إلى هذا الفن ولكنه كثر فى

(١) البلاغة تطور وتاريخ صـ٥٦د/شوقى ضيف ط٨دار المعارف.

أشعارهم فعرف فى زمانهم حتى سمى بهذا الاسم ، فأعرب عنه ودل عليه، ثم إن حبيب بن أوس الطائى من بعدهم شغف به حتى غلب عليه، وتفرع فيه، وأكثر منه، فأحسن فى بعض ذلك وأساء فى بعض، وتلك عقبى الإفراط، وثمرة الإسراف، وإنما كان يقول الشاعر فى هذا الفن: البيت أو البيتين فى القصيدة، وربما قرئت من شعر أحدهم قصائد من غير أن يوجد فيها بيت "بديع"، وكان يستحسن ذلك منهم إذا أتى نادرا، ويزداد حظوة بين الكلام المرسل[1].

وعلى هذا فإن أول [2] من وضع هذا الاسم لمحسنات الكلام إنما هو عبدالله بن المعتز، بتصنيفه كتاب "البديع"، وهو ــ وإن لم يقصد بهذه التسمية ما قصده المتأخرون من البلاغيين ــ كالخطيب القزوينى ــ إذ جعلها شاملة للجديد والمخترع ــ لكنه جعل أنواع البديع خمسة، وهى: الاستعارة، والتجنيس، والمطابقة، ورد الأعجاز على ما تقدمها، والمذهب الكلامى، ثم أتبعها بذكر بعض محاسن الكلام والشعر، فعد منها ثلاثة عشر نوعا.

على أن عبدالله بن المعتز ــ وإن لم يكن مقصده من كتابه هو وضع المعيار الحقيقى للشاعر فى نظمه، أو الأديب فى نثره، بل كان مقصده هو الرد على من يلهجون باستخدام البديع أنه أصيل فى اللغة العربية ــ إلا أنه كان يعرف ما لفنون البديع من أثر فى نفوس السامعين، ولكنه ــ فى الوقت نفسه ــ كان يعيب الإكثار منها، والإفراط فى تتبعها، كما لاحظنا من كلماته السابقة، ويفهم من هذا: أن معيار الجودة عنده: إنما هو بحسن موقع هذه الألوان موقعها من

(١) كتاب البديع لعبدالله بن المعتز، ط كراتشقوفسكى، من كتاب البلاغة تطور وتاريخ صـ٦٧، والنقد المنهجى عند العرب، د/محمد مندور، صـ٥٠ .

(٢) مراحل البحث البلاغى صـ٧١، أ.د/ حسن إسماعيل عبدالرازق، ط أولى، دار الطباعة المحمدية .

الكلام، وإنما يكون ذلك إذا جاءت مناسبة لمكانها من الجملة أو البيت، دون عمد أو قصد من الأديب أو الشاعر[1].

وإذا كان ابن المعتز أول من ألف فى البديع فقدامة بن جعفر هو أول من غمس البديع فى بحار الفلسفة ، واقتفاه واستعان بطريقته جمهور المؤلفين بعده[2]، كما أنه أول من لفت الأذهان إلى تقسيم ألوان البديع إلى لفظى وإلى معنوى[3].

على أن قدامة بن جعفر المتوفى سنة ٣٣٧هـ قد تجرد لتأليف كتابه "نقد الشعر" وبين فى أول صفحة من كتابه: أنه لم يجد أحدا وضع فى نقد الشعر، وتخليص جيده من رديئه كتابا، وأنه قد وجد الناس يخبطون فى ذلك منذ تفقهوا فى العلم، وقليلا ما يصيبون. وهو بذلك كأنه يقول: إن نقد الشعر علم لم يستطع أحد فهمه من قبله، لأنه لا يكفى ــ فى نقد الشعر ــ أن تورد ألوانا من فنون البديع، مستدلا على وجودها فى الشعر الجاهلى والإسلامى، والقرآن الكريم، والسنة النبوية، وكلام الصحابة، وإنما النقد الحقيقى للشعر هو: أن تميز جيده من رديئه.

ولهذا فإنه قد ذكر هدفه من تأليف كتابه، وهو: ذكر أسباب الجودة وأحوالها، ليكون ما يوجد من الشعر قد اجتمعت فيه الأوصاف المحمودة كلها، وخلا من الخلال المذمومة بأسرها يسمى شعرا فى غاية الجودة، وما يوجد بضد هذه الحال يسمى شعرا فى غاية الرداءة، وما يجتمع فيه من الحالين أسباب ينزل له اسم بحسب قربه من الجيد أو من الردئ أو وقوعه فى الوسط الذى يقال لما كان فيه: صالح، أو متوسط، أو لا جيد، أو لا ردئ[4].

---

(١) الصبغ البديعى ، صـ١٣٠، ١٣١ بتصرف.
(٢) المصدر نفسه، صـ١٤٤ .
(٣) المصدر نفسه، صـ١٤٦ .
(٤) نقد الشعر، لقدامة بن جعفر، صـ٦٥ تحقيق د. محمد عبدالمنعم خفاجى، بيروت ، لبنان .

وفى القرن الرابع الهجرى نجد عصر الموازنة بين الشعراء، والتوسط بينهم وبين خصومهم، ومن الكتب التى اهتمت بالبديع فى تلك الفترة: كتاب الوساطة بين المتنبى وخصومه، للقاضى على بن عبدالعزيز الجرجانى المتوفى سنة ٣٩٢هـ . وقد سرد القاضى الجرجانى فى هذا الكتاب ألوان البديع التى كانت دائرة حتى عصره، وهى: التجنيس، والمطابقة، وجمع الأوصاف، والتقفية، والترصيع .

تلكم هى ألوان البديع التى أوردها القاضى الجرجانى فى وساطته[١]، فهل جعلها من معاييره البلاغية والنقدية فى وساطته بين المتنبى وخصومه؟ أو أنه قد أورد منها ما أورد، ليبين أنها من ألوان الصنعة التى أغرم بها المحدثون كأبى تمام ــ فأكثروا منها فباعدت بينهم وبين طبعهم، فلم يسترسلوا له؟

الحق ــ كما يرى أستاذنا الدكتور/ حسن إسماعيل عبدالرازق ــ أنه لم يورد هذه الألوان البديعية إلا لهذا الغرض الأخير؛ ذلك لأنه ــ فى وساطته ــ لا يؤلف كتابا فى البلاغة؛ فذلك له مجال آخر، تعهد به القاضى الجرجانى، ولا ندرى أوفى بعهده أم لا؟ فقد قال عقب حديثه عن الطباق ".... ولنا فى استيفاء هذا الكلام وتحديد هذه الأضرب قول سنفرد له كتابا، يحتمل استقصاؤه فيه"[٢].

وإنما ذكر ما ذكر من ألوان البديع توطئة لما يذكره، على أثره، وتدريجا إلى ما بعده، ليكون كالشاهد المقبول قوله، وبمنزلة المسلم أمره .

والدليل على أن القاضى الجرجانى لم يكن يعجب بألوان البديع إعجابه بالاسترسال للطبع: أنه قارن بين أبيات فى الغزل لأبى تمام، قد ملأها بألوان البديع والصنعة؛ من طباق، وجناس، واستعارة،

(١) مراحل البحث البلاغى، صـ١٢٢ : ١٢٦ .
(٢) الوساطة بين المتنبى وخصومه، للقاضى الجرجانى، صـ٤٦ .

وبين أبيات لأعرابى قد استرسل لطبعه، وجرى على سجيته، فلم يحفل بإبداع أو صنعة، ففضل قول الأعرابى على قول أبى تمام.

ولكن طريقة القاضى الجرجانى – وهى تطبيق البلاغة على النص الأدبى – ما لبثت إلا لأن تزول وذلك بانصراف الأدباء فى القرن الخامس الهجرى إلى تقنين البلاغة وتفريع ألوان البديع، كأبى هلال العسكرى المتوفى سنة ٣٩٥هـ فى كتابه "الصناعتين"، وابن رشيق القيروانى المتوفى سنة ٤٦٣هـ فى كتابه "العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده".

أما أبو هلال فقد استقصى فنون البديع التى سجلها النقاد من قبله، وذكر أن فنون البديع خمسة وثلاثون فنا، وأنه زاد على ما أورده السابقون ستة فنون، والتقى بعبدالله بن المعتز فى عشرة فنون هى: الاستعارة، والتطبيق أو التطابق، والتجنيس أو الجناس، والكناية، والتعريض، ورد الأعجاز على الصدور، والالتفات، والاعتراض، والرجوع، وتجاهل العارف، والمذهب الكلامى . والتقى بقدامة فى اثنى عشر فنا، هى: المقابلة، وحسن التقسيم وصحة التفسير، والإشارة ، والإرداف والتوابع، والغلو، والمبالغة، والعكس، والتبديل، والترصيع، والإيغال، والتوشيع، والتكميل، والتقسيم.

أما الستة التى وضعها فهى: التشطير، والمجاورة، والاستشهاد، والاحتجاج، والمضاعفة، والتلطف، والتطريز.

وتبقى سبعة فنون لم يذكر لها أصلا، ويبدو أنه[1] نقلها من رسالة خاله أبى أحمد العسكرى فى "صناعة الشعر" وتلك الفنون هى: المماثلة، والتذييل والاستطراد، وجمع المؤتلف والمختلف، والسلب والإيجاب، والاستثناء، والتعطف.

(١) البلاغة تطور وتاريخ، صـ١٤٣ .

على أن الفنون الستة التى ذكر أنه قد اكتشفها وسماها بأسمائها لم تجد لها مجالا فى ميدان البديع، ومن ثم فإن صنيعه هذا لا يعد اكتشافا، ولا يرقى إلى درجة الابتكار.

غير أن التطريز[1] ــ وهو "أن يقع فى أبيات متوالية من القصيدة كلمات متساوية فى الوزن ، فيكون فيها كالطراز فى الثوب" ثم قال أبوهلال: "وهذا النوع قليل فى الشعر وأحسن ما جاء فيه قول أحمد بن أبى طاهر:

إذا أبو قاسم جادت لنا يده ∴ لم يحمد الأجودان: البحر والمطر
وإن أضاءت لنا أنوار غرته ∴ تضاءل الأنوران: الشمس والقمر
وإن مضى رأيه أوحد عزمته ∴ تأخر الماضيان: السيف والقدر
من لم يكن حذرا من حد صولته ∴ لم يدر ما المزعجان: الخوف والحذر

هو ما يمكن أن نجد له مكانا بين المحسنات البديعية الأخرى.

تلك هى الألوان التى عرض لها أبو هلال فحق علينا إطراؤه وإكبار مجهوده فقد كفانا مؤونة ذلك وأربى على ما كنا نريده.

وأما صاحب "العمدة"، فإنه قد تحدث هو الآخر من خلال كتابه عن فنون البديع، وأضاف إليها أربعة، هى: "الاتساع، والاطراد، ونفى الشئ بإيجابه، والتفريع".

والذى نلمحه من الجدة فى صنيع ابن رشيق بالبديع أنه أطلق على ألوانه اسم "الحلى" قال فى أثناء حديثه عن المثل السائر: "وهذه الأشياء فى الشعر إنما هى نبذ تتحسن ، ونكت تستظرف مع القلة وفى الندرة، فأما إذا كثرت فهى دالة على الكلمة .. ولا ينبغى للشعر أن يكون أيضا خاليا مغسولا من هذه الحلى فارغا"[2].

ولابن رشيق سلف فى إطلاق اسم الحلى على ألوان البديع وهو عبدالعزيز الجرجانى صاحب "الوساطة" فقد قال فيها بعد أن

---

(١) البلاغة تطور وتاريخ، صـ١٤٥، والصبغ البديعى، صـ١٧٥ .
(٢) العمدة لابن رشيق القيروانى ٢٨٥ تحقيق/محمد محيى الدين عبدالحميد.

سرد ألوانا من البديع صـ٤٨: "وقد يمتنع بعض الأدباء من تسمية بعض ما ذكرناه بديعا لكنه أحد أبواب الصنعة، ومعدود فى حلى الشعر" ومن قبل الجرجانى أطلق على بعضها ابن المعتز "محاسن الكلام والشعر" وذلك فى كتابه "البديع".

ولعل هذا كله قد خدع المتأخرين فأخذوا هذا الإطلاق على ظاهره، وألصقوه بالبديع، وكان من نتائجه السيئة: الحكم على هذه الأصباغ بأنها زائدة عن الغرض، وآتية بعد مطابقة الكلام لمقتضى الحال، ووضوح الدلالة، وإلا كانت كتعليق الدر على أعناق الخنازير.

وسيأتى فى فصل قادم ـ بمشيئة الله تعالى ـ موقفى من هذا الحكم الظالم الجائر، وحسبى أن أقول هنا: إن الجرجانى وابن رشيق لم يقصدا إلى ما فهمه المتأخرون بل الحلية عندهما أمر ذاتى ليس بالعرضى يتم به الغرض من الأسلوب إن وجد، وينعدم إن لم يوجد، وعلى هذا درج عبدالقاهر كما سنرى[١].

وختاما نقول: إن فنون البديع قد تعددت وتفرعت قبل عبدالقاهر الجرجانى ولم يكن القصد من تنويعها أو تفريعها ـ فى الغالب ـ هو الحكم على النصوص الأدبية بالجودة أو الرداءة ـ كما هو الحال عند الآمدى[٢] والقاضى الجرجانى[٣] ـ وإنما كان الغرض هو إظهار مدى ما للمؤلفين من قدرة على اكتشاف الألوان البديعية المتناثرة بين ثنايا النصوص الأدبية ـ كما هو الحال عند أبى هلال العسكرى[٤] وابن رشيق القيروانى[٥] ـ.

---

(١) فى الفصل الثانى والثالث.
(٢) فى الموازنة بين أبى تمام والبحترى.
(٣) فى الوساطة بين المتنبى وخصومه.
(٤) فى كتاب الصناعتين.
(٥) فى العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده.

حصيلة هذا الفصل

هكذا رأينا أن "البديع" شأنه شأن أى كائن حى، يمر بمراحل النمو والمعرفة المعروفة، من الطفولة إلى الشباب إلى الشيخوخة، وهذا ما لمسناه فى مصطلح "البديع"، حيث إنه لم يكن موجودا فى العصر الجاهلى، ولا فى صدر الإسلام، وإنما كان وليد فترة أغرم فيها المحدثون بتتبع فنونه فى الشعر العربى، وذلك فى القرنين الثانى والثالث الهجريين، وكان فى بداية حياته يطلق على معنى عام يشمل فنون البلاغة المختلفة، وذلك على يد الجاحظ، ثم بعد ذلك دخله التنويع على يد ابن المعتز، لكنه كان أكثر دقة من الجاحظ، حيث إنه نظر إلى الألوان البديعية من حيث موقعها من الكلام، ثم بعد ذلك انغمس "البديع" فى بحار الفلسفة على يد قدامة بن جعفر، ثم نما وترعرع لكى يطبق على النصوص الأدبية، ويخوض مجاله فى النص الأدبى، وذلك على يد الآمدى والقاضى الجرجانى، ثم بعد ذلك فى القرن الخامس الهجرى أظهر الأدباء مدى قدرتهم على اكتشاف الألوان البديعية المتناثرة بين ثنايا النصوص الأدبية، فلجأوا إلى تقنين البلاغة، وتفريع ألوان البديع ــ كما رأينا عند أبى هلال العسكرى، وابن رشيق القيروانى ــ وإذا كان هذا هو شأن "البديع" من التطور والرقى، فيجدر بنا ــ ونحن فى هذا المقام ــ أن نوضح مكانته ومنزلته بين علوم البلاغة، وهذا هو ما نسعى لإثباته بالحجة القوية، والبرهان الساطع، والدليل الناصع، فى الفصل التالى ــ بمشيئة الله تعالى ــ .

الفصل الثانى
منزلة البديع من البلاغة

منزلة البديع من البلاغة

تابع الجاحظ الرواة فى إطلاق البديع على الجديد المستطرف من الفنون الشعرية، وعلى بعض الصور البيانية التى تكسب المعنى جمالا، وتزيده جمالا وكمالا، واستدل بقول الشاعر:

هم ساعد الدهر تبقى به ∴ وما خير كف لا تنوء بساعد

فعلق على هذا البيت بقوله: هم ساعد الدهر إنما هو مثل، وهذا الذى يسميه الرواة بديع. وبهذا نجد أن الجاحظ نظر إلى كلمة "بديع" على أنها مرادفة لكلمة "بلاغة" ، أو "بيان" فالكل عنده بديع وبيان وبلاغة، كما نجده قد رفع قدر البديع، وأعلى من شأنه حتى جعل من المواهب التى اختص بها العرب دون غيرهم فقال: "والبديع مقصور على العرب ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة". (١)

وهذه النظرة المتألقة للبديع ظلت طيلة خمس قرون الأولى، ورفع رايتها كل من: ابن المعتز، وقدامة بن جعفر، وأبى هلال العسكرى، وابن رشيق القيروانى، وغيرهم من المبرزين فى ميادين البلاغة والنقد .

ولهذا ، فإنه ليس بمعقول أن ينحى البديع عن البلاغة ــ كما فعل الخطيب القزوينى، إذ جعله تابعا لعلمى المعانى والبيان، لا يقصد لذاته، ولا يؤم لنفسه ــ ولهذا أيضا ــ فإننا سنرى عبدالقاهر الجرجانى يضع البديع فى موضعه الصحيح من البلاغة، فلا يفرده عنها، ولا يجعل حسنه تابعا، وإنما يجعل هذا الحسن من صميم المعنى.

نظرة عبدالقاهر الجرجانى إلى البديع:

نظر الإمام عبدالقاهر الجرجانى إلى البديع نظرة لا تختلف عن نظرته إلى سائر فنون البلاغة، لأن المقياس عنده "متى كانت العبارة

---

(١) البيان والتبيين ، للجاحظ ، حـ١ ، صـ١٤٥ .

من مقتضيات المقام، ويتطلبها النظم، فهى من البلاغة فى الصميم، أيا كان الاسم الذى تقع تحته"[1].

والدليل على نظرته أنه صرح فى أكثر من موضع بأن ألوان البديع حتى المعروفة منها تنال أعلى الرتب إذا هى وقعت موقعها من النظم، وأنه عقد فصلا فى دلائل الإعجاز عالج فيه النظم، الذى يتحد فى الوضع، ويدق فيه الصنع، وذكر فيه المزاوجة، والتقسيم، والعكس، والتمثيل، والمشبه المتعدد، وغير ذلك من ألوان البديع، وظلت فنون البلاغة هكذا، قوائم وأقران، لم يفصل أحدهما عن لآخر، فهى عنده وحدة فنية منسقة البناء، عميقة الجذور، واسعة الإطار.

ويرى عبدالقاهر أن البديع يساعد على فضيلة الكلام حين لا يكون متكلفا خاليا من الفائدة، ولا يقصد به غير الزخرف والزينة، فإذا أتى عفو الخاطر، أو كان المعنى هو الذى طلبه واستدعاه، فإنه يقرر أن التجنيس وقتئذ يكون أحلى تجنيس تسمعه وأعلاه، وأحقه بالحسن وأولاه، ويقول عن التجنيس والسجع: بل إنه لو رام تركهما إلى خلافهما مما لا تجنيس فيه ولا سجع، لدخل من عقوق المعنى وإدخال الوحشة عليه[2].

ولهذا ذم العلماء من يحمله تطلب السجع والتجنيس على أن يضيم لها المعنى ، ويدخل الخلل عليه من أجلهما، كالذى صنع أبوتمام فى قوله:

ذهبت بمذهبه السماحة،والتوت ∴ فيه الظنون: أمذهب أم مذهب

---

(١) محاضرات فى علم البديع، د/ محمد عبدالمنعم على. ألقاها على طلاب الفرقة الرابعة فى كلية اللغة العربية بالزقازيق عام ١٩٩٤م فى شهرى فبراير ومارس.

(٢) أسرار البلاغة، للإمام عبدالقاهر الجرجانى، جـ١ صـ١٠٦ تحقيق د/ محمد عبدالمنعم خفاجى .

فإذا ما نظرت إلى تجنيسه فى: (أمذهب أم مذهب) فاستضعفته، وإلى تجنيس من قال:

نـاظراه فيمـا جـرى نـاظراه ∴ أودعـانى أمـت بمـا أودعـانى

فاستحسنته، لم تشك بحال فى أن ذلك لم يكن يرجع إلى اللفظ، ولكن: لأنك رأيت الفائدة ضعفت فى الأول، وقويت فى الثانى، وذلك لأنك رأيت أبا تمام لم يزدك بمذهب ومذهب، على أن أسمعك حروفا مكررة، لا تجد لها فائدة ــ إن وجدت ــ إلا مكلفة مجهولة، ورأيت الآخر قد أعاد عليك اللفظة، كأنه يخدعك عن الفائدة وقد أعطاها، ويوهمك أنه لم يزدك ، وقد أحسن الزيادة ووفاها، فبهذه السريرة صار التجنيس من حلى الشعر، ومذكورا فى أقسام البديع[1].

فعبدالقاهر لا يعتبر فنون البديع علما مستقلا، لأنه لم يفردها بالذكر، وإنما يدخلها فى باب النظم ، فالبديع عنده فى أكرم مكان من البلاغة وأرفعه، حيث إن البديع تكاتف فيه ــ فى إبرازه ــ اللفظ مع المعنى، فالأسلوب لا يحل محله من البلاغة والقبول، ولا يصادف موضعه من الخلابة واستلاب العقول، إلا إذا تلاقى فى تقويمه اللفظ والمعنى جميعا، واستوفى كل واحد منهما نصيبه من الحسن واستحوذ على قسطه من الجمال، وعلى ذلك درج العلماء النقاد فى القديم والحديث قال ابن رشيق[2]: اللفظ جسم وروحه المعنى، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم يضعف بضعفه ويقوى بقوته .

نظرة الزمخشرى إلى البديع:

قد عرض الزمخشرى للمشاكلة، والطباق، والجناس، والمزاوجة، والتقسيم، وغير ذلك مما جعله المتأخرون من علم البديع، كما عرض لفنون البيان والمعانى ولا نجد فى كلامه ما يدل

---

(١) المصدر نفسه، صـ٩٩، ١٠٠ .

(٢) العمدة لابن رشيق القيروانى، حـ ١ص ١٢٤، تحقيق/ محمد محيى الدين عبدالحميد .

على أن الألوان التى جعلها المتأخرون من علم البديع دون غيرها من فنون البيان والمعانى، من حيث أثرها، فى قوة الكلام وبلاغتــه، وإذا نظرنا فى كتابه كله ــ الكشاف ــ ووقفنا عند كل لون ذكره من هذه الألوان، لوجدناه يشير إلى بلاغتها، وإلى أنها فن من كلامهم بــديع، وطراز عجيب، وأنها من مستغرب فنون البلاغة، ثم يشــيد ببلاغــة القرآن المعجزة التى تحيط بكل هذه الفنون، وتوجد فيها على أحسن صورة، وأقوم منهج، ولم نجده ــ فيما قرأنا ــ يقول على أى لــون من ألوان البديع ما يشكك فى بلاغته، أو يقلل من قيمته، اللهم إلا ما قاله عن الجناس عند تعليقه على الآية الكريمــة: ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ ﴾[1] بعدما ذكر فيها من نكــت وأســرار، استفصح علماء البيان هذه الآية، ورقصوا لها رؤوسهم لا لتجــانس الكلمتين: ابلعى وأقلعى. وذلك وإن كان لا يخلى الكلام مــن حســن، فهو غير الملتفت إليه بإزاء تلك المحاسن التى هى اللب وما عــداها قشور، فقد يتوهم أن الزمخشرى بهذا يضع من مكانة البــديع فــى الإعجاز القرآنى .

والحق أننا لم نسمع منه هذه النغمة إلا فى فن الجناس، وذلك راجع إلى انصراف اهتمام الأدباء والشعراء فى عصره إلى هذا الفن، حتى صار صناعة ثقيلة متكلفة.

فهو يشير إلى أن ما جاء فى القرآن من هذا اللون الذى فتنتم به لم يكن هو وحده سر بلاغته، كما جعلتموه سر بلاغتكم.

ولهذا يقول فى الجناس فى آية أخرى هــى: ﴿وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ ﴾[2] هذا من جنس الكلام الذى سماه المحدثون البديع، وهــو من محاسن الكلام الذى يتعلق باللفظ بشرط أن يجــئ مطبوعــا، أو

(١) سورة هود ــ ٤٤ .
(٢) سورة النمل ــ ٢٢ .

يضعه عالم بجوهر الكلام يحفظ معه صحة المعنى وسداده، ثم يقول فى موقعه من القرآن: ولقد جاء هنا زائدا على الصحة فحسن وبدع لفظا ومعنى، ألا ترى أنه لو وضع مكان "بنبأ" كلمة "خبر" لكان المعنى صحيحا ، وهو كما جاء أصح، لما فى النبأ من الزيادة التى يطابقها وصف الحال[1].

ونظرة الزمخشرى هذه لم تختلف عن نظرة عبدالقاهر فى عدم التفرقة بين علوم البلاغة.

نظرة فخر الدين الرازى إلى البديع:

لخص فخرالدين الرازى كتابى عبدالقاهر "الدلائل والأسرار"، ويرى أن عبدالقاهر يقصر البلاغة على معرفة "النظم".

فيقسم كتابه "نهاية الإيجاز" إلى جملتين[2]: الأولى يتحدث فيها عن المفردات، والكلمات المركبة، ويتحدث فيها ضمن ما تحدث عنه، عن الجناس، ورد العجز على الصدر، والسجع والازدواج والترصيع، ولا شك أن هذه من ألوان البديع، ولكنه يجعلها جنبا إلى جنب مع التشبيه والاستعارة والكناية والمجاز العقلى والمبتدأ والخبر والتعريف والتنكير. ولا شك أن ما مر بعضه من البيان والآخر من المعانى.

ويعقد الجملة الثانية ويجعلها خاصة "بالنظم" وهى تشمل ستة أبواب، الباب الأول: فى حقيقة "النظم" وهو ثلاثة فصول، الفصل الثالث منها يتكلم عن أقسام "النظم" الذى هو البلاغة عند عبدالقاهر، فإذا ما اطلعنا على هذه الأقسام وجدناها كما يلى: المطابقة ـ المقابلة ـ المزاوجة ـ الاعتراض ـ الالتفات ـ اللف ـ والنشر.. الخ الوجه الثالث والعشرون فى حسن التعليل.

---

(١) البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى صـ ٤٧٩ ـ ٤٨٣، د/محمد أبوموسى.

(٢) محاضرات فى علم البديع د/ محمد عبدالمنعم على.

وبعد هذا يأتى بالفصل والوصل والتقديم والتأخير والقصر ... الخ هذه كلها من أبواب النظم مما يوحى أنها من صميم البلاغة إذا أتت طوعا ولم تتكلف، وليست ذيلا وتابعا للبلاغة.

وهكذا ظلت فنون البلاغة قوائم وأقران لم يفصل أحدهما عن الآخر فهى عندهم وحدة فنية منسقة البناء، عميقة الجذور، واسعة الإطار، ولكن هذا الوجه المشرق ما لبث أن يجف عوده، وكان ذلك بعد الإمام عبدالقاهر، وعلى يد المدارس العقلية التى عرفت بجمودها وقيودها، ومن أعلام هذه المدرسة أبويعقوب السكاكى.

نظرة أبى يعقوب السكاكى إلى علم البديع:

يعد أبويعقوب السكاكى أول من قسم البلاغة إلى علمين هما: المعانى والبيان، ووضع تعريفا خاصا لكل منهما، ولكنه لم يعرض لألوان البديع على أنها علم مستقل عن علمى المعانى والبيان، بل عرض لها على أنها تشارك مسائل العلمين فى تزيين الكلام بأبهى الحلل والوصول به إلى أعلى درجات التحسين.

فقد ساق السكاكى ضمن المحسنات المعنوية: الاعتراض والالتفات والإيجاز، ونبه القارئ إلى أنها سبق دراستها فى علم المعانى.

ثم بعد ذلك يعرض لتحديد الفصاحة والبلاغة ثم يقول[1]: وإذ قد تقرر أن البلاغة بمرجعيها "المعانى والبيان" والفصاحة بنوعيها "اللفظية والمعنوية" ما يكسو الكلام حلة التزيين، ويرقيه أعلى درجات التحسين فهاهنا وجوه مخصوصة كثيرا ما يصار إليها لقصد تحسين الكلام، فلا علينا أن نشير إلى الأعرف منها، وهى قسمان .. قسم يرجع إلى المعنى، وقسم يرجع إلى اللفظ" .

(١) الصبغ البديعى فى اللغة العربية، صـ٥٠٥ .

ونلمح من كلام السكاكى هذا أن من المحسنات ما يمكن رجوعه إلى علم المعانى، كالطباق ونحوه، ومنها ما يمكن أن يرجع إلى مسائل البيان كالمشاكلة ونحوها.

كما نلمح ــ أيضا ــ أن السكاكى بعد أن انتهى من علمى المعانى والبيان، عرض لتعريف البلاغة والفصاحة وهما من قبيل المقدمات لهذين العلمين ــ ولا ينفى عنهما هذا الاسم تأخير السكاكى لهما ووضعهما فى ذيلهما ــ ثم ضم إليهما هذه المحسنات.

وهذا الصنيع من السكاكى، يشير إلى أن محسنات البديع ــ عنده ــ من قبيل المقدمات التى لابد منها لطالب علمى المعانى والبيان[1].

وعلى الرغم من أن السكاكى لم يجعل البديع علما مستقلا، ولم يفصل بين مسائل البديع والبيان نقول: إن صنيعه كان منحدرا سقط فيه كثير من العلماء، فراحوا يباعدون بين هذه الوجوه وبين البلاغة .. فتارة يوقعون عليها اسم الحلية والعرض، وطورا يطلقون عليها اسم اللاحق والذنب الذى لا يمس صميما ولا يمثل غرضا، إذ إنهم حينما رأوا السكاكى يسرد بين هذه الوجوه وجوها سلكها فى نظام علم المعانى حزبهم الأمر وكاد ينغلق أمامهم وجه الصواب لولا أنهم برعوا فى صناعة التأويل وركبوا فى سبيلها الأباطيل فقالوا تخلصا من هذه الورطة .. "إن وجوه البديع إذا اقتضاها المقام كانت من البلاغة، وإلا فهى عرض وتزيين"[2].

على أن بدرالدين بن مالك، صاحب المصباح هو الذى جعل هذه الوجوه ــ التى كثيرا ما يشار إليها لقصد تحسين الكلام ــ من علم البديع وبذلك يكون صاحب المصباح هو أول من أطلق على هذه

(١) الصبغ البديعى فى اللغة العربية صـ٢٥٢، ٢٥٣ .
(٢) المصدر نفسه صـ٥٠٦ وانظر عقود الجمان للسيوطى ١٠٨ .

المسائل "علم البديع"، وأول من قسم علوم البلاغة إلى ثلاثة علوم هى: المعانى، والبيان، والبديع[1].

نظرة الخطيب القزوينى إلى البديع:

عرف الخطيب القزوينى "البديع" بالتعريف الذى صدرنا به البحث وهو: "علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة"[2] بهذا التعريف يظهر مدى انخداع الخطيب بطريقة السكاكى ــ السالفة الذكر ــ إذ جعل فنون البديع علما مستقلا مع أنه قد خالط العلمين منذ بداية التأليف فى البلاغة حتى عصر الخطيب.

وليس هذا فحسب ، بل إنه قضى على ألوان البديع بأن تكون "حلى مزينة، تكسو الكلام بهجة، بعد رعاية المطابقة ، ووضوح الدلالة . فكان بهذا العمل أول الجانين على البديع ممن ألفوا فى البلاغة، فوضعه هذا الموضع الشائن البغيض.

حيث إن مسائل البديع عنده لا تعدو أن تكون حلية يؤتى بها لتحسين الكلام بعد أن يكون المتكلم قد راعى مطابقة الكلام لمقتضى الحال، وأن يكون قد راعى فى الكلام حقه من وضوح الدلالة، وبذلك تكون مكانة البديع عنده فى المؤخرة، فلا هو مما يقتضيه الحال، ولا مما يساعد على وضوح الدلالة، بل هو قادم تعيس إن طلب لبى وإن ترك لم يخطر ببال.

وعلى ذلك فإن هذا المفهوم عن البديع وتلك المكانة غير لائقة به، ورغم هذا ظل عالقا بأذهان الناس إلى يومنا هذا، مما ألحق بالبديع الضيم، وأنزل به سدفا من الظلم، وأورده موارد التهلكة.

---

(١) المصباح فى المعانى والبيان والبديع ، لبدرالدين بن مالك صـ٤، ٥ تحقيق د/ حسنى عبدالجليل يوسف.

(٢) الإيضاح للقزوينى،حـ٤ص ٣٠ ضمن بغية الإيضاح، د/عبدالمتعال الصعيدى .

وقال سعدالدين فى المطول: "فقوله بعد رعاية المطابقة ووضوح الدلالة تنبيه على أن هذه الوجوه إنما تعد حسنة للكلام بعد رعاية الأمرين وإلا لكان كتعليق الدرر على أعناق الخنازير"(١) وقال فى المختصر فى مقدمة علم البيان: "قدمه على البديع للاحتياج إليه فى نفس البلاغة، وتعلق البديع بالتوابع"(٢) قال الدسوقى تعليقا على هذا : "أى توابع البلاغة . وذلك لأن البديع علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة ووضوح الدلالة، فلا جرم أنه لا تعلق به بالبلاغة ، وإنما يفيد حسنا عرضيا للكلام البليغ، وكلام الشارح المذكور يشير إلى أن البديع من توابع البلاغة، وهو ما جزم به بعضهم، خلافا لمن قال: إنه من تتمة علم المعانى، ولمن قال: إنه من تتمة علم البيان(٣).

ومن ثم علم ــ جيدا ــ أن مكان البديع ــ فى نظر الخطيب ــ من علمى البلاغة مكان التابع من المتبوع، وبالرغم من هذا فقد اختلفت نظرة العلماء فى تحديد تلك المكانة، وبيان تلك المنزلة.

فنجد بهاء الدين السبكى يعلق على قول الخطيب فى تعريف البديع .. بعد رعاية المطابقة ووضوح الدلالة: "يحتمل أن يكون مقصود التعريف هو: القواعد التى يعرف بها وجوه التحسين ووجوه التطبيق والوضوح . ومعرفة التطبيق والوضوح سابقان على معرفة التحسين فيكون علم المعانى والبيان جزأين للبديع ، ويحتمل أن يكون المراد: هو قواعد يعرف بها وجوه التحسين بعد معرفة التطبيق

(١) المطول، لسعدالدين التفتازانى، صـ٤١٦ ،وتابعهم السيوطى فى عقود الجمان، صـ١٠٧ .

(٢) مختصر سعدالدين على التلخيص،حـ ٣ص ٢٥٦ ،ضمن شروح التلخيص.

(٣) حاشية الدسوقى على مختصر السعد، حـ ٣ص ٢٥٦، ضمن شروح التلخيص.

والوضوح، وعلى هذا لا يكون علما المعانى والبيان جزأين، بل مقدمتين للبديع، وقد صرحوا بأن المراد هو الأول"[1].

وقد عرض الدكتور أحمد إبراهيم موسى قول عبدالحكيم ـ وهو يعرض لمكان البديع من البلاغة ـ فيقول: "ثم إن منهم من جعل البديع علما على حدة كالمصنف رحمه الله ، ومنهم من جعله من ملحقات علم البيان نظرا إلى المحسنات اللفظية، ومنهم من جعله من ملحقات علم المعانى كالسكاكى رحمه الله، وقد بينه العلامة قطب الدين الشيرازى ـ رحمه الله ـ فى شرحه، فهو جزء جعلى من علم المعانى، وليس جزءا منه حقيقة إذ لا دخل له فى البلاغة"[2].

ولكننا نرى ـ كما يرى الإمام عبدالقاهر ومن حذا حذوه ـ أن المحسنات البديعية إذا أتت طوعا دون تكلف، واستدعاها المقام وتتطلبها النظم فهى من البلاغة فى الصميم، وليست ذيلا وتابعا للبلاغة كما ذهب إليه الخطيب القزوينى.

فالبديع مستقل بنفسه غير تابع لغيره، يفيد الكلام حسنا، ويكسبه جمالا، والحق الذى لا ينازع فيه منصف: أن البديع لا يشترط فيه التطبيق ولا وضوح الدلالة، وأن كل واحد من تطبيق الكلام على مقتضى الحال، ومن الإيراد بطرق مختلفة فى وضوح الدلالة، ومن وجوه التحسين قد يوجد دون الآخرين، وأول برهان على ذلك، أنك لا تجدهم فى شئ من أمثلة البيان يتعرضون لاشتماله على التطبيق والإيراد، بل تجد كثيرا منها خاليا عن التشبيه والاستعارة والكناية، التى هى طرق علم البيان، هذا هو الإنصاف وإن كان مخالفا لكلام الأكثرين[3].

---

(١) عروس الأفراح،حـ٤ص ٢٨٣، ٢٨٤، ضمن شروح التلخيص، بتصرف .

(٢) الصبغ البديعى، صـ٥٠٢ .

(٣) عروس الأفراح،حـ٤ص ٢٨٤ .

ولكننى أدعوك ــ الآن ــ لأن تنظر فى التراث الأدبى نظرة منصفة تتعرف من خلالها على مكانة البديع، ونظرة أئمة علماء البلاغة إليها. وقد حاولت أن أجلى لك عن وجه البديع حتى يبدو مشرقا، كما كان عليه الحال أيام أن كان الذوق الأدبى عربيا خالصا، وحسبنا فى وضع البديع فى مكانه اللائق به من البلاغة أن نعرض مسائله ونزنها بنفس المقياس الذى أمسك به الإمام عبدالقاهر، عندما كان يقيم نظرية النظم، ويقيس كل فنون البلاغة على هذا المعيار، فالمقبول عنده ما طلبه المعنى واستدعاه، ونحا نحوه، وكان موقعه من العقل حميدا ، وهو نفس الإطار الذى دار حوله المفهوم العام للبلاغة فى قوله "البلاغة مطابقة الكلام لمقتضى الحال"، فكل ما اقتضاه الحال وتطلبه المقام فهو من البلاغة فى الصميم، وإليكم بعض ألوان البديع على ضوء هذا المقياس:

الطباق:

تعريفه: الجمع بين متضادين فى الجملة[1] كقول الله عزوجل: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[2].

فالغرض الذى سيقت من أجله الآية: هو تصوير القدرة الإلهية فى أوسع معانيها، وبيان السلطان الربانى فى أشمل مظاهره، وأكمل صوره، وقد أدى فن الطباق هذا الغرض أتم أداء، فقد قوبل فى الآية الكريمة بين: تؤتى وتنزع ، وبين: تعز وتذل؛ لأن هذا الغرض لا يتم إلا بالجمع بين كل منهما ، والحكم أنه سبحانه يقدر على الأمرين معا، الإيتاء أو ما فى معناه، والنزع أو ما فى معناه، وكذلك الإعزاز

(١) الإيضاح، حـ ٤ص ٤ ضمن بغية الإيضاح، أ.د/ عبدالمتعال الصعيدى.

(٢) سورة آل عمران : ٢٦ .

والإذلال، وعلينا الآن أن نتساءل ونبحث: هل كان من الممكن أن يتحقق الغرض من الآية الكريمة بمعزل عن الطباق؟ أم أن المعنى اقتضاه والحال استدعاه والغرض لا يتم إلا به، لأن ذكر المقابل لا محيص عنه فى هذا المقام، إذ قد يقدر الإنسان على الإيتاء، ولكنه لا يقدر على النزع، ويستطيع آخر أن يعز، ولكنه يعجز عن الإذلال، ومع هذا فإننا لا نضن على أى منهما بوصفه بالقدرة، ولكننا نضن عليه بوصفنا له بالقدرة التامة، وإقرارها ما بين يديه بالسلطان الشامل فهو الله وحده الذى جمع بقدرته بين الإيتاء والنزع، وبين الإعزاز والإذلال، وهكذا يكون فن الطباق من البلاغة فى الصميم.

وأيضا فإن المقطوع به أن الطباق والمقابلة من الأمور الفطرية المركوزة فى الطباع التى لها علاقة وثيقة ببلاغة الكلام، إذ الضد أقرب خطورا بالبال عند ذكر ضده، كما أن الضد يظهر حسنه الضد[1] فأنت عندما تعرف أن من شأن، فلان كذا من الصفات الطيبة ، ومن شأن الآخر كذا من الصفات السيئة، وتعرضها معا فى معرض واحد، فإن ذلك لا يحتاج إلى كبير عناء لإظهار فضل أحدهما على الآخر. ولتستمع معى إلى الشاعر يعرض شكواه من حبيبه فيقول:

منى وصل، ومنك هجر ∴ وفى ذل، وفيك كبر
قد كنت حرا، وأنت عبد ∴ فصرت عبدا، وأنت حر

ولا شك فى أنك سترق لحال الشاكى الرقيق، ولا أراك إلا متعاطفا معه، وإن سألتك عن سر هذا التأثير، فسيكون جوابك: أن الشاعر قد عرف وأجاد فى تصوير حاله مع محبوبته بهذه الطريقة التى أظهرته فى منتهى التهالك والصبابة والحفاظ على حبيبه، بينما هذا الحبيب يغرق فى الظلم والكبر والتعالى، وما كان لهذا الإحساس أن يشع من جوانب الأبيات لولا هذه المقابلة الرائعة التى أحسن

(١) الصبغ البديعى، صـ ٤٧١ .

الشاعر وصفها، حيث قابل الشاعر بين وصله وهجر حبيبه، وبين ذله وكبر حبيبه، وبين كونه حرا وحبيبه عبدا، وبين صيرورته عبدا وصيرورة حبيبه حرا ، ومن ثم فقد كان الطباق من مقتضيات وموجبات الأحوال، فهو من البلاغة فى الصميم.

المشاكلة:

هى ذكر الشئ بلفظ غيره لوقوعه فى صحبته تحقيقا أو تقديرا[1] ، وقد جاءت فى القرآن الكريم، والحديث النبوى الشريف، والشعر العربى، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ ﴾[2] وقول الرسول ـ ﷺ ـ : "إن الله لا يمل حتى تملوا"[3] أى أن الله سبحانه وتعالى لا يقطع عن المسلمين ثوابه ونعمه حتى يملوا من سؤاله، وقول الشاعر:

قلوا: اقترح شيئا نجد لك طبخه ∴ قلت: اطبخوا لى جبة وقميصا

فلفظ "سيئة" الثانية فى الآية مشاكلة؛ لأنها أطلقت على جزاء السيئة الأولى، والذى كان فى الأصل أن يسمى قصاصا، وكان الأصل فى التعبير أن يقال فى غير القرآن الكريم: وجزاء سيئة قصاص مثلها، ولكن لما وقع القصاص فى صحبة السيئة، وكان مشابها لها أطلق لفظ السيئة عليه تأهيلا للمشاكلة بينهما، وليوحى ذلك بأن العمل والرد عليه من جنس واحد، وعلى وتيرة واحدة، كما أن الرسول الكريم أطلق على انقطاع الثواب ملل، لأن الملل سبب فى ذلك ، كذلك نلاحظ أن الشاعر قد وضع "اطبخوا" مكان "أخيطوا" لمشابهة الخياطة للطبخ فى حاجته لكل منهما[4].

---

(١) الإيضاح، حـ ٤ص ١٨ ضمن بغية الإيضاح .

(٢) سورة الشورى : ٤٠ .

(٣) صحيح البخارى،حـ ٢ص ٦٨ ، ط دار الفكر، والترغيب والترهيب للمنذرى، حـ ٢ص ١١٧، ط مصطفى الحلبى .

(٤) الصبغ البديعى صـ ٤٧٤، ٤٧٥ .

والمشاكلة عند بعض العلماء من باب المجاز المرسل وعلاقته المجاورة لوقوعها فى صحبة الكلمة الأولى وبجانبها ، وهذا صادق على كل أمثلة المشاكلة والسببية حيث إن السيئة سبب القصاص فى الآية، وملل المؤمنين هو سبب انقطاع الثواب عنهم كما فى الحديث. وعلى هذا فالأمثلة من قبيل المجاز المرسل، وهى عند البعض من قبيل الاستعارة، والعلاقة المشابهة، كما فى قول الشاعر:

قالوا اقترح شيئا نجد لك طبخه ∴ قلت اطبخوا لى جبة وقميصا

وقال ابن يعقوب: قيل: إن المشاكلة واسطة بين المجاز والحقيقة والكناية، وقيل: إنها دائما مجاز مرسل، علاقته المجاورة التى هنا هى الوقوع فى الصحبة، وقيل: إنها تجامع المجاز المرسل والاستعارة إن لوحظت علاقتهما، وإلا فهى واسطة، قاله بعض المشايخ . فقد استبان لك أن أسلوب المشاكلة من البيان، وهو من البلاغة فى الصميم [1].

أسلوب تأكيد المدح بما يشبه الذم:

هو أن يبالغ المتكلم فى المدح فيعمد إلى الإتيان بعبارة يتوهم السامع منها فى بادئ الأمر أنه ذم، فإذا هو مدح مؤكد. كقول النابغة:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ∴ بهن فلول من قراع الكتائب

فالاستثناء فى "غير أن" جاء بعد نفى العيب عن الممدوحين. وهو يوهم الذم، لكن المستثنى هو فلول أسيافهم من المقارعة والمضاربة، وما ذلك إلا لشجاعتهم الباهرة، فكان غاية فى المدح: لما "فى هذا الأسلوب من معنى المباغتة والمفاجأة التى تكسب المعنى طرافة، وتثير حوله تنبها"[2].

---

(١) مواهب الفتاح حـ ٤ص ٣١٠، ضمن "شروح التلخيص" .

(٢) البديع فى ضوء أساليب القرآن صـ ٤٨، للدكتور/ عبد الفتاح لاشين، ط أولى، دار المعارف سنة ١٩٧٩م.

وإذا كان الغرض من البيت تنزيه الممدوحين من العيوب، وكان هذا الأسلوب هو الذى يؤدى ذلك الغرض فهو من البلاغة فى الصميم.

أسلوب تجاهل العارف:

هو كما سماه السكاكى سوق المعلوم مساق غيره لنكتة[1]، كقول العرجى:

بالله يا ظبيات القاع قلن لنا ... ليلاى منكن أم ليلى من البشر

فمقام الغزل مما يستدعى أوفر المبالغات فى تصوير حال العاشق فى الحب، وما صار إليه من ذهول العقل، وما انتهى إليه من ذهاب الفكر، وفقدان التمييز، وكلما بولغ فى وصف تلك الحال قوى الغرض وتأكد المراد. والعرجى يعلم أن محبوبته من البشر لا من الظبيات، ولكنه شاعر غزل يعرف من أين تؤكل الكتف، ويعلم من أين يجئ إلى الغرض، فتجاهل وأظهر أن الحب قد أدهشه، وسلب منه العقل والرشاد، فصار لا يدرى أهى من البشر أم من غيره، وكل أولئك ليحقق غرضه من بلوغه فى صبابته وحبه أعمق المراتب وأقصى الغايات، ولا ريب فى أن ذلك مما يستدعيه مثل هذا المقام.

وهكذا رأينا أن علم البديع من البلاغة فى الصميم إذا أتى طوعا ولم يتكلف وليس ذيلا ذلا وتابعا للبلاغة، بل هو علم مستقل بنفسه غير تابع لغيره.

ولست بهذا أريد أن أجعل البديع يطل برأسه، ويقف على قدميه بجوار أخويه "المعانى والبيان" ولكنى أريد أن أعترض على تقسيم البلاغة إلى علومها الثلاثة "المعانى والبيان والبديع" فابن المعتز الذى يؤلف كتاب "البديع" يجعل من البديع الاستعارة والتشبيه

---

(١) مفتاح العلوم ، لأبى يعقوب السكاكى، صـ ٤٢٧ ، تحقيق / نعيم زرزور، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان.

والكناية والطباق، والاعتراض، والالتفات، والإفراط فى الصنعة .. الخ ، وهى خليط من العلوم الثلاثة[١].

وقدامة بن جعفر يؤلف كتابا فى نقد الشعر، وأبوهلال العسكرى يؤلف كتاب الصناعتين، وابن رشيق القيروانى يؤلف كتاب العمدة، وكلهم أدخل فى البديع مباحث كثيرة من علم البيان كالاستعارة والمجاز والكناية، وكذا الشيخ عبدالقاهر يقول فى الأسرار: وأما التطبيق والاستعارة وسائر أقسام البديع فلا شبهة أن الحسن والقبح لا يعترض الكلام بهما إلا من جهة المعانى خاصة، من غير أن يكون للألفاظ نصيب أو يكون لها فى التحسين أو خلاف التحسين تصعيد وتصويب[٢].

من هذا يتضح أنه جعل الاستعارة من باب البديع، وتراه فى الدلائل يخلط بين أبواب المعانى والبيان ويجعلهما متشابكين تماما دون فصل.

وخير دليل على فساد هذا التقسيم أن حدود هذه العلوم ليست دقيقة بدليل أن بعض المؤلفين ومنهم السكاكى أدخل المجاز العقلى فى علم البيان[٣]، بينما غيره ومنهم القزوينى جعله فى علم المعانى[٤]، كذلك نجد جماعة أدخلوا التذييل والاحتراس والاعتراض والحشو فى البديع[٥]، بينما جعلها الآخرون من صميم علم المعانى

---

(١) كتاب البديع لابن المعتز ط كراتشتوفسكى، من أول الكتاب إلى صـ٥٧ .

(٢) أسرار البلاغة صـ١١٢ تحقيق/ محمد عبدالمنعم خفاجى.

(٣) المصباح فى المعانى والبيان والبديع، لابن مالك، صـ١٤٤ تحقيق د/حسنى عبدالجليل يوسف ، على أنه تابع للسكاكى.

(٤) كتاب متن التلخيص، صـ٧، للخطيب القزوينى .

(٥) المصباح، لابن مالك، صـ٢١٥ : ٢١٩ .

وجعلوها أقساما للإطناب[1]، كما نجد بعضهم يجعل الالتفات ضمن مباحث علم المعانى كالقزوينى مثلا، والآخر يجعله ضمن مباحث علم البديع كالسيوطى[2].

ومن العجب أن سر جمال الاستعارة عندهم هو ما توحيه من مبالغة فى التشبيه، ومع هذا يجعلها المتأخرون من البيان، بينما يعدون المبالغة نفسها بأقسامها من إغراق وغلو من البديع، فالاستعارة والمبالغة يشتركان فى هدف واحد، وإحداهما من البيان، والأخرى من البديع.

وأمثلة المشاكلة هى نفسها أمثلة المجاز المرسل الذى تكون علاقته السببية كقوله: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾[3].

ومع هذا يعدون المشاكلة من البديع، والمجاز من البيان، فالأحسن أن نسمى الجميع علم "البيان" أو نجعل ما يخص النظم علم "المعانى" والباقى علم "البيان" كما فعل عبدالقاهر[4].

وبذلك نعود بالبلاغة ــ وخاصة البديع ــ إلى حيث كان ينظر عبدالقاهر الجرجانى؛ فقد كان ينظر إلى البلاغة على أنها ذوق، وإحساس، وجمال فى التعبير؛ ولهذا جعل الذوق السليم هو المعيار الصحيح لفهم البلاغة، وقضاياها ودراسة مسائلها، أما المتأخرون فإنهم كانوا ينظرون إليها على أنها قواعد علمية بحتة، يجب ضبطها

---

(١) الخصائص، لابن جنى، حـ١ ، ص٣٣٥ ، تحقيق / محمد على النجار.

(٢) الكشاف للزمخشرى ، حـ١ ، صـ٤٩ .

(٣) سورة البقرة : ١٩٤ .

(٤) تاريخ علوم البلاغة صـ١١٨ د/ أحمد المراغى، وفن البديع ، صـ ٣٥ ، د/ عبدالقادر حسين.

بتعاريف جامعة مانعة، فحكموا المنطق فى الحكم على الموضـوعات البلاغية التى تضمنها تراث عبدالقاهر الجرجانى.

أو بعبارة أخصر: إن عبدالقاهر كان ينظر إلى البلاغة بمنظـار الذوق الأدبى السليم، بينما نظر المتأخرون إليهـا بمنظـار المنطـق العلمى الجاف، وشتان ما بين النظرتين!! (١).

(١) من منابع البلاغة بين الأسرار والدلائل ، صـ١٤١ ؛ أ.د/حسن إسماعيل عبدالرازق .

حصيلة هذا الفصل

من خلال عرضنا لهذه النماذج التى سـقناها لإثبـات منزلـة "البديع" من البلاغة، نعلم أن علم البديع هو من البلاغة فى الصميم، وليس هذا فى عصر ما فحسب، وإنما فى كل العصور والأوقات، فقد جعله الجاحظ ــ كما أشرنا ــ من المواهب التى اختص بها العـرب دون غيرهم حيث قال: "والبديع مقصور على العرب، ومن أجله فقـد فاقت لغتهم كل لغة"، وحمل هذه الراية المتألقة كل من ابن المعتـز، وقدامة بن جعفر، وأبىهلال العسكرى، وابـن رشـيق القيروانـى، وغيرهم من المبرزين فى ميادين البلاغة والنقد إلى أن جاء الإمـام عبدالقاهر الجرجانى، الذى نظر إلى مسائل البديع نظرة لا تختلف عن نظرته إلى سائر فنون البلاغة ؛ لأن المقياس عنده : "متـى كانـت العبارة من مقتضيات المقام ، ويتطلبها النظم ، فهى من البلاغة فـى الصميم".

وعلى هذا نستطيع أن نحكم بأن المدرسة السكاكية ــ بقيـادة أبى يعقوب السكاكى ــ قد وضعت البديع فى منحدر سقط فيه كثيـر من العلماء؛ حيث إنها أظلمت وجه البديع المشرق، ووقفـت نبضـه الحى، حتى جف عوده، وذلك بتقسيمها البلاغة إلـى علمـين همـا "المعانى والبيان"، ثم جاء الخطيب القزوينى وأكمل الكارثـة، فـأنزل البديع منازل الضيم، وأورده موارد التهلكة، وأنزل بـه سـدفا مـن الظلم؛ حيث إن البديع ــ عنده ــ ذيل وذنب للبلاغة، وتابع لها، فـلا يعدو أن يكون حلية يؤتى بها لتحسين الكلام بعد أن يكون المتكلم قد راعى مطابقة الكلام لمقتضى الحال، وأن يكون قد راعى فى الكـلام حقه من وضوح الدلالة، وبذلك تكون مكانة البديع عنده فى المؤخرة، فهو قادم تعيس إن طلب لبى، وإن ترك لم يخل بإبعاده من مكان.

ولكننا بعد تحليلنا لبعض نماذج من التراث الأدبى، ونظرتنا إلى البديع نظرة منصفة، علمنا علم اليقين أن منزلة البديع من البلاغة منزلة الابن من أبيه، فهو من البلاغة فى الصميم .

ولكن هناك سؤال يعرض نفسه على بساط البحث، ويفتش عمن يروى ظمأه بالإجابة، وهو هل يعود البديع على الأسلوب بالتحسين الذاتى؟ أو يعود عليه بالتحسين العرضى؟ وحسبنا فى هذا المقام أن البديع يعود على الأسلوب بالتحسين الذاتى، وهذا ما نسعى لإثباته بالأدلة الواضحة، والبراهين القوية فى الفصل التالى ــ بمشيئة الله تعالى ــ .

الفصل الثالث
البديع بين الحسن الذاتى والحسن العرضى

البديع بين الحسن الذاتى والحسن العرضى

لقد سيطرت شهوة المخالفة على بعض العلماء حتى وضعوا البديع فى مكان غير لائق به، فجاروا عليه وتعسفوا به؛ مما أضعف من قوته، وقلل من بهائه وروعته، وقضى عليه بأن يكون ذيلا من ذيول البلاغة، وذنبا من أذنابها، وعرضا من أعراضها، لا يقصد لذاته، ولا يؤم لنفسه، ولا يعود على الأسلوب بالتحسين الذاتى، بل هو التابع الزنيم، واللاحق الذليل الذى لا يلقى من الإكبار والإجلال ما يلقاه الذاتى الأصيل.

ولكن للأسف فقد لقى هذا الحكم رواجا من المتأخرين، وصادف تأييدا لدى الشارحين والمقررين، واكتسب الأشياع، واجتذب الأنصار من الدارسين والمحصلين، فمضوا يؤكدون هذا الحكم بضرب الأمثال فيقولون: "هذا ذيل وذنب وحلية وعرض، لا يبلو العقول ولا يسبر الأذهان، ولا يكشف عن مقدار ما ينبغى أن يكون عليه طالب البلاغة من بصر بالأساليب العلمية، وقدرة على توجيهها"(١).

ومن ثم فإن غرضنا الأول وهدفنا الأساسى هو إثبات الحسن الذاتى وإبطال العرضى، حتى يبلغ البديع محله، ويحل موضعه، ومنهجنا فى ذلك هو عرض لبعض آراء القائلين بالعرضية، ثم آراء القائلين بالذاتية، وإثبات هذه بالحجة والبرهان حتى ننصف البديع من جور المتأخرين، وننقذه من عسفهم.

القائلون بالعرضية:

منهم الخطيب القزوينى، حيث إنه أجحف بمنزلة البديع، وأوردها غير ورودها حينما جعلها ذيلا من ذيول البلاغة، وذنبا من أذنابها لا تجئ إلا تابعة ولا تسمو إلى آفاق الذاتية والأصالة، وإن شئت فاقرأ تعريفه السابق للبديع وهو: "علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة"(٢).

---

(١) الصبغ البديعى، صـ ٤٧٠.

(٢) الإيضاح حـ ٤ص ٣، ضمن بغية الإيضاح.

والذى ألجأ الخطيب القزوينى إلى الإشارة إلى علمى المعانى والبيان فى تعريف البديع: أنه لا يعده من صميم البلاغة، بل هو كالذيل لعلمى المعانى والبيان، وأنه يأتى بعد استيفاء شروط البلاغة، وأن حسنه فى الكلام عرضى. وليس هذا بصحيح؛ لأن كثيرا من ألوان البديع ــ كما رأينا فى الفصل السابق ــ يقتضيها الحال، ويحتاج إليها الأديب فى شعره ونثره .

واقرأ ــ أيضا ــ قوله فى التلخيص بعد أن عرف بلاغة الكلام: "وتتبعها وجوه أخرى تورث الكلام حسنا"(١)، وقول التفتازانى فى مختصره تعليقا على هذا: أى وتتبع بلاغة الكلام وجوه أخر سوى المطابقة والفصاحة تورث الكلام حسنا، وفى قوله: "تتبعها" إشارة إلى أن تحسين هذه الوجوه للكلام عرضى خارج عن حد البلاغة وإلى أن هذه إنما تعد حسنة بعد رعاية المطابقة والفصاحة"(٢)، وقول ابن يعقوب المغربى: "وتتبع بلاغة الكلام وجوه أخرى. أى أحوال عارضة للكلام سوى الفصاحة والمطابقة لمقتضى الحال تورث تلك الوجوه الكلام حسنا زائدا على الحسن الذاتى الحاصل بالبلاغة ونبه بقوله .. تتبع .. على أن حسن الكلام بهذه الأوجه لا يعد حتى يحصل متبوعه الذى هو حسن البلاغة"(٣) وقول العصام فى الأطول: "وفى قوله "تتبعها" تنبيهات: أحدها: أن الوجوه البديعية لا تحسن بدون البلاغة، وثانيها: أنه يجب تأخير علم البديع عن علم البلاغة، وثالثها: أن الحسن الذى تورثه عرضى غير داخل فى حد البلاغة، ورابعها: أن هذه الوجوه إنما تكون من البديع إذا لم يقتضها الحال، إذ لو اقتضاها الحال لم تكن تابعة للبلاغة"(٤).

(١) كتاب متن التلخيص صـ٥ .
(٢) مختصر السعد حـ١ص ١٤١، ١٤٢ ضمن شروح التلخيص .
(٣) مواهب الفتاح لابن يعقوب المغربى حـ ١ص ١٤١ .
(٤) الأطول لعصام الدين الإسفراييني ، حـ١ ، صـ٣٦ .

وقال سعدالدين فى مطوله: "فقولـه: بعـد رعايـة المطابقـة ووضوح الدلالة تنبيه على أن هذه الوجوه إنما تعد حسنة للكلام بعد رعاية الأمرين" وإلا لكان كتعليق الدرر على أعناق الخنازير"[١]، ومن قبل ذلك قال فى المختصر فى مقدمة علم البيان: قدمه علـى البـديع للاحتياج إليه فى نفس البلاغة، وتعلق البديع بالتوابع[٢] قال الدسوقى تعليقا على هذا: "أى توابع البلاغة. وذلك لأن البديع علم يعرف بـه وجوه تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة ووضوح الدلالة، فلا جـرم أنه لا تعلق به بالبلاغة وإنما يفيد حسنا عرضيا للكلام البليغ"[٣].

وقال العصام ــ معلقا على تعريف السكاكى للمعانى ــ : وأشار بذكر الاتصال إلى أنها خارجة من المعانى ملحقـة بـالخواص فـى التزيين إلا أن تزيينها ــ المحسنات البديعية ــ عرضـى، وتـزيين الخواص ــ المعانى ــ ذاتى[٤].

وتعريف السكاكى للمعانى هو: تتبع خواص تراكيب الكلام فـى الإفادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ فى تطبيق الكلام ما يقتضى الحال ذكره[٥]. وهكـذا فقـد سيطرت نظرة الخطيب على أذهان كثيـر مـن المتـأخرين فرأحـوا يخضون أقوال من سبقوه إلى نظرته لك فهى ــ فى زعمهم ــ منزهة عن الخطأ.

فنجد صاحب الطراز يرى أن الحسن فى البديع عرضى ومجرد حلية للكلام، فهو بمنزلة الغرة فى وجه الفرس فنراه يقول: "هو من

(١) المطول ، صـ٤١٦ .
(٢) مختصر السعد ، حـ٣ ، صـ ٤٥٦ .
(٣) حاشية الدسوقى على شرح السعد ، حـ٣ ، صـ ٢٥٦ .
(٤) الأطول ، حـ١ ،صـ ٤١ ، ٤٢ .
(٥) المفتاح ، صـ ٧٧ .

ألطف مجارى الكلام، ومن محاسن مداخله، وهو من الكلام كالغرة فى وجه الفرس"[١].

كما نجد الشيخ محمد مصطفى المراغى فى "زهر الربيع فى المعانى والبيان والبديع" يرى أن الحسن فى البديع عرضى فهو يقول: "ولما كان علم البديع يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية ما تقدم ــ المطابقة ووضوح الدلالة ــ جعل تابعا لهما ــ علم المعانى وعلم البيان ــ إذ بهما يعرف التحسين الذاتى ، وبه ــ علم البديع ــ يعرف التحسين العرضى، إذ هو يكسو الألفاظ من الطلاوة أبهج جلبا، ويكسبها رقة يسترق به حر الألباب"[٢] وقال فى موطن آخر من نفس الكتاب وهو يعرف علم البديع: "فتحسين الكلام بهما ذاتى وبه ــ البديع ــ عرضى"[٣].

وكذلك الشيخ عبدالمتعال الصعيدى،يرى أن الحسن فى المحسنات البديعية عرضى، فعندما عرف الخطيب البديع بقوله: "علم يعرف به وجوه تحسين الكلام ...." علق عليه الشيخ عبدالمتعال بقوله: "وهذه الوجوه إنما سميت محسنات لأنها ليست من مقومات البلاغة ولا الفصاحة، فالحسن الذى تحدثه فى الكلام عرضى لا ذاتى"[٤].

وهم بحكمهم هذا يشبهون لنا علم البديع بالطلاء الذى تطلى به البيوت بعد استكمال البناء، إنه مجرد زينة خارجية وطلاء ظاهرى لا تتوقف جودة البناء على بقائه ولا تذهب بذهابه. فهو التابع الزنيم واللاحق الذليل ومجرد حلية للكلام.

---

(١) الطراز، صـ٣٧٢ ،تحقيق/ محمد عبدالسلام شاهين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

(٢) زهر الربيع فى المعانى والبيان والبديع، صـ١٠، الشيخ/ محمد مصطفى المراغى .

(٣) المصدر نفسه، صـ١٣٠ .

(٤) بغية الإيضاح ، حـ٤ ، صـ٣ .

على حين أننا نجد من يقف بجوار البديع ويجعله من مهمات البلاغة، ويجعل حسنه فى الكلام حسنا ذاتيا، وذلك على النحو التالى:

القائلون بالذاتية:

نجد أبا هلال العسكرى فى كتاب "الصناعتين" يقول كلاما يشم منه أن الحسن فى البديع حسن ذاتى، ولكنه مشروط بسلامة الكلام من التكلف والبراءة من العيوب فيقول: "هذا النوع من الكلام إذا سلم من التكلف، وبرئ من العيوب، كان فى غاية الحسن، ونهاية الجودة"(١).

كما نجد ابن رشيق القيروانى يعتبر الأنواع التى جمعها ابن المعتز فى كتابع البديع من الحسن الذاتى فهو يقول: "والبديع ضروب كثيرة، وأنواع مختلفة، على أن ابن المعتز ــ وهو أول من جمع البديع، وألف فيه كتابا ــ لم يعده إلا خمسة أبواب: الاستعارة أولها، ثم التجنيس، ثم رد الأعجاز على الصدور، ثم المذهب الكلامى، وعد ما سوى هذه الخمسة أنواع محاسن، وأباح أن يسميها من شاء ذلك بديعا"(٢) وهذا الكلام يوحى بأن ابن رشيق يجعل الحسن فى المحسنات البديعية حسنا ذاتيا، فى حين أن ابن المعتز جعل الحسن فى الخمسة أنواع ــ التى جمعها فى كتابه ــ حسنا ذاتيا، أما سائر أنواع البديع فهى مجرد محاسن وحسنها عرضى، وعلى أية حال فالمعتد به عندهما الحسن الذاتى .

ثم يأتى عبدالقاهر الجرجانى ويدخل فنون البديع فى باب النمط العالى من النظم الذى لا تجد سلطان المزية يعظم فى شئ كعظمته فيه، ولا يجعل حسنها عرضيا، بل جعله حسنا ذاتيا، لأن الجناس

---

(١) كتاب الصناعتين ، صـ ٢٦٤ ، تحقيق د/ مفيد قميحة .

(٢) العمدة لابن رشيق القيروانى ١/ ٢٦٥ تحقيق/ محمد محيى الدين عبدالحميد .

والسجع وغيرهما مما يظن أن الحسن فيه راجع إلى اللفظ، كل ذلك راجع إلى المعنى، لأنه لا يحسن إلا إذا كان المعنى هو الذى قد طلبه واستدعاه.

فالمحسنات البديعية ـ فى رأى عبدالقاهر ـ لا ينبغى أن تكون هدفا فى ذاتها، لا ينبغى أن تكون حلية شكلية تضاف إلى الصورة، وإنما لابد أن يكون لها دور فى نقل المعنى وإيصاله، وأن تنسجم فى الوقت نفسه مع البناء العام للتركيب البلاغى، ولا يكون على حساب هذا البناء ، وفى هذا المعنى يقول:

"أما إذا أتى البديع ـ تجنيسا كان أو سجعا ـ مستندا إلى عفو الخاطر، وبدون تكلف، أو كان المعنى هو الذى يطلبه ويستدعيه، ولم يحول عنه، فإنه يصرح بأن هذا أحلى تجنيس تسمعه وأعلاه وأحقه بالحسن وأولاه"(١).

ثم يبرهن على أن الحسن راجع إلى تعانق اللفظ مع المعنى فيقول: "إنك لا تستحسن تجانس اللفظتين إلا إذا كان موقع معنييهما من العقل موقعا حميدا، ولم يكن مرمى الجامع بينهما مرمى بعيدا"(٢).

ومن ثم فكل ما اقتضاه المقام وتطلبه المعنى فهو من البلاغة فى الصميم، ويكون حسنه حسنا ذاتيا.

ثم حمل هذه الراية المتألقة الزمخشرى ـ متأثرا بصنيع عبدالقاهر ـ حيث إنه عرض لألوان البديع، وأشار إلى أنها فن من كلام العرب بديع، وطراز عجيب، وأنها من مستغرب فنون البلاغة، ثم يشيد ببلاغة القرآن المعجزة التى تحيط بكل هذه الفنون وتوجد فيها على أحسن صورة، وأقوم منهج، ولم أجده ـ فيما قرأت ـ

(١) أسرار البلاغة حـ١صـ ١٠٣ .
(٢) المصدر نفسه صـ٩٩ .

يقول على أى لون من ألوان البديع ما يشكك فى بلاغته أو يقلل من قيمته ، وهذا يدل على أن الحسن فى البديع ــ فى رأيه ــ حسن ذاتى لا عرضى. ألم يعلق على قول الله تعالى: ﴿ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ بقوله: "لو وضع مكان "بنبأ" كلمة "خبر" لكان المعنى صحيحا، وهو كما جاء أصح، لما فى النبأ من الزيادة التى يطابقها وصف الحال"(١).

ومن بعد الزمخشرى يأتى فخرالدين الرازى ويعرض ألوان البديع فى كتابه "نهاية الإيجاز" ويجعلها جنبا إلى جنب من سائر ألوان البلاغة، مما يشهد بأن حسنها فى الكلام حسن ذاتى إذا أتت طوعا ولم تتكلف .

ثم يأتى ضياء الدين ابن الأثير ليكمل المسيرة فيقول كلاما يشهد بأن البديع من البلاغة فى الصميم وأن حسنه حسن ذاتى فنراه يقول: "فإنه مهم عظيم من مهمات البلاغة ... بل يكون جميع كلامه كأنما أفرغ إفراغا"(٢) فهذا الكلام يوحى بأن الصبغ البديعى فى الكلام ذاتى أصيل فانصبابه فى الكلام كانصباب المادة الخام فى صندوقها الخشبى فتأخذ شكلا ثابتا وراسخا وموافقا لما أراده صاحبها .

على حين أنه يقول فى موطن آخر من ــ المثل السائر ــ كلاما يجعل فيه الكاتب ــ إذا تهيأ له أن يأتى بالبديع فى كتاباته على الطبع وغير متكلف ــ ملكا على رقاب الكلم فهو يقول: "أما إذا كان محمولا على الطبع غير متكلف فإنه يجئ فى غاية الحسن ، وهو أعلى درجات الكلام، وإذا تهيأ للكاتب أن يأتى به فى كتابته كلها على هذه الشريطة فإنه يكون قد ملك رقاب الكلم: يستعبد كرائمها، ويتولد

(١) البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى، صـ ٤٧٩ ، ٤٨٣، د/محمد أبوموسى، وسورة النمل : ٢٢ .

(٢) المثل السائر لابن الأثير، حـ ٢ص ٢٤٤ ،تحقيق/ محمد محيى الدين عبدالحميد .

عقائمها، وفى مثل ذلك فليتنافس، وعن مقامه فليقاعس، ولصاحبه أولى بقول أبىالطيب المتنبى:

أنت الوحيد إذا ركبت طريقة .: ومن الرديف وقد ركبت غضنفرا؟

وعلى هذا فالقائلون بالذاتية يجعلون البديع وثيق الصلة ببلاغة الكلام، ومحله من التحسين ذاتى أصيل لا شائبة للعرضية فيه، وهذا هو ما يدفعنى لضرب مثال يوضح مكانة البديع ومحله من التحسين، وهو: أن تكون حبات من ذهب ودرر ولآلئ ويواقيت، وغير ذلك من أنواع الأحجار النفيسة، ثم إنها ألفت تأليفا بديعا ، بأن خلط بعضها ببعض، وركبت تركيبا أنيقا، ثم بعد ذلك التأليف، تارة تجعل تاجا على الرأس، ومرة طوقا فى العنق، ومرة بمنزلة القرط من الأذن، فالألفاظ الرائقة بمنزلة الدرر واللآلئ ، وهو علم المعانى، وتأليفها وضم بعضها إلى بعض هو علم البيان ، ثم وضعها فى المواضع اللائقة بها عند تأليفها وتركيبها هو علم البديع، فوضع التاج على الرأس بعد إحكام تأليفه هو وضع له فى موضعه، ولو وضع فى اليد أو الرجل، لم يكن موضعا له، وهكذا الكلام بعد إحكام تأليفه يقصد به مواضعه اللائقة به، وما ذكرناه من المثال هو أقرب ما يكون من هذه العلوم ــ أعنى المعانى والبيان والبديع ــ الثلاثة وتمييز مواقعها.

ومن ثم لم يبق لنا إلا أن نرشح ما قلناه بالأدلة القوية والبراهين والحجج الناصحة حتى نقف فى وجه المخالفين ــ القائلين بالعرضية ــ ومعنا النبراس المضئ الذى يدحض ما زعموه ويبطل ما ادعوه ويأخذ بيد البديع حتى يتألق فى سماء البلاغة، وكأنه نجم من نجومها يلمع فى دجاها، ويبرق فى غياهبها. وحسبنا فى هذا المقام أن نعرض لبعض ألوان البديع على النحو التالى:

أسلوب الطباق:

قال الله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾(١) فقد طابق فى هذه الآية بين (تؤتى) و(تنزع) وبين (تعز) و(تذل)، ولما كان الغرض من هذه الآية الكريمة هو: تصوير القدرة فى أوسع معانيها، وبيان السلطان فى أشمل مظاهره وأكملها فإن ذلك لا يتم إلا بالجمع بين الضدين، والحكم بأنه يقدر على الأمرين: الإيتاء أو ما فى معناه، والنزع أو ما فى معناه، وكذلك الإعزاز والإذلال.

على أن ذكر المقابل لابد منه فى صياغة مثل هذا الغرض، لأنه قد يقدر شخص على الإيتاء ولكنه لا يقدر على النزع، ويستطيع إنسان أن يعز، ولكنه قد يعجز عن الإذلال، ومع هذا فإنك لا تضن عليه بوصفه بالقدرة، ولكن المضنون به عليه هو الحكم له بالقدرة التامة والسلطان الشامل. وذلك القدر كاف فى إثبات التحسين الذاتى لأساليب الطباق، وعلى غراره تجرى أساليب المطابقة(٢).

أسلوب الإرصاد:

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾(٣) قالوا: قوله "ظلمهم" إرصاد، وقد دل هذا الإرصاد على أن عجز الآية من مادة الظلم، إذ لا معنى لأن يقال فى غير القرآن ــ مثلا ــ ولكن كانوا أنفسهم ينفعون أو يمنعون من الهلاك أو غير ذلك، وإن كون مادة الروى هى النون بعد الواو، معلوم من الآية السابقة وهى قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا

---

(١) سورة آل عمران : ٢٦ .
(٢) الصبغ البديعى، صـ ٤٧١ .
(٣) سورة النحل : ٣٣ .

﴿كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1] وإذا كان الغرض من هذه الآية: هو نفى أن يكون من الله تعالى ظلم للعباد، وإثبات ظلمهم لأنفسهم كان من طبيعة مثل هذا الأسلوب الذى يؤدى به مثل ذلك الغرض أن يدل أوله على آخره، وسابقه على لاحقه، وقد روى أنه لما بلغت قراءة النبى ـ ﷺ ـ ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾[2] قال عبدالله بن أبى سرح ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ فقال النبى ـ ﷺ ـ كذلك أنزلت[3].

على أن الجاحظ قد أورد قول عبدالله بن المقفع: ليكن فى صدر كلامك دليل على حاجتك، كما أن خير أبيات الشعر: البيت الذى إذا سمعت صدره عرفت قافيته .

وإذا تعلق غرض المتكلم بمثل هذا كان ما دعوه باسم الإرصاد عائدا على الأسلوب بالتحسين الذاتى لأنه مما يقتضيه المقام[4].

التورية:

قال ابن يعقوب[5] المغربى فى قول الله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾[6] الأيدى: جمع يد، واليد لها معنيان : قريب، وهو الجارحة المعلومة، وبعيد، وهو القدرة التى إطلاق اليد عليها مجاز، والمراد بها ههنا: المعنى البعيد الذى هو القوة والقدرة، والقرينة: استحالة الجارحة على الله تعالى، قد تقدم ما يفهم منه وجه خفائها فتكون تورية وإن كانت مجازا وقد قرنت بما يلائم المعنى القريب الذى هو الجارحة ـ وهو البناء لأنه إنما يعهد بالجارحة والمعهود

(١) سورة النحل : ٣٢ .
(٢) المؤمنون : ١٤ .
(٣) تفسير النسفى، حـ٣ص ١١٦ ، دار إحياء الكتب العربية لعيسى البابى الحلبى .
(٤) الصبغ البديعى، صـ٤٧٢، ٤٧٣ .
(٥) مواهب الفتاح، حـ ٤ص ٣٢٤ ـ ٣٢٦ ضمن شروح التلخيص.
(٦) سورة الذاريات : ٤٧ .

بالقوة : الإيجاد والخلق، فقد رشح فيها معنى التورية وأصلها الذى هو الخفاء بوجود ما يبعد عن المراد مع خفاء القرينة.وهذا ــ أعنى: كون اليد أطلقت على معناها المجازى البعيد بقرينة خفية فكانت تورية ــ مبنى على ما اشتهر بين أهل الظاهر من المفسرين الذين يقتصرون على ما يبدو،ولم يظهر لهم هنا للأيدى إلا المعنى البعيد .

وأما عند من يوسم بالتحقيق، ممن يمارس مقتضى تراكيب البيان ، فالكلام تمثيل على سبيل الاستعارة وهو: أن مجموع "بنيناها بأيد" نقل عن أصله عن طريق التشبيه، وأصله وضع لبنة وما يشبهها على أخرى بقوة الأيدى، إلى الإيجاد بالقوة، لأن النفس بالمحسوس أعرف ..." .

فمبنى التورية عند ابن يعقوب على خفاء القرينة، مع كون المراد بعيدا، وإن لم نسلم له بهذا الشرط ، فكم من مجاز قد خفيت قرينته وبعدت عن كثير من الأذهان، ويكون مع هذا واقعا موقعه من الروعة والخلابة والسحر والجمال، وكم من تورية ــ فى عرفهم ــ ظهرت قرينتها، ومع هذا فإنهم لم يضنوا عليها بهذا الاسم .

والعصام[1] يقول فى تعريف التورية: "فالمختصر الواضح أن يقال: هو أن يطلق اللفظ على غير ما وضع له لقرينة خفية مما يتعلق بإيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة فى وضوح الدلالة ثم قال: "فهو داخل فى أصل البلاغة، فكيف عد من البديع؟" .

فتعريف العصام للتورية ينطبق على تعريفهم للمجاز سوى تقييده بخفاء القرينة. ولهذا فإن الذى نطمئن إليه هو: أن التورية من باب المجاز إذا كان المعنى المورى عنه مجازيا، وأما إذا كان حقيقيا: فهى من باب المشترك، وهو مجاز أو حقيقة على خلاف قار فى موطنه من كتب الأصول .

(١) الأطول، حـ ٢ص ١٩٤ .

وعلى أية حال فإن التورية عائدة على الأسلوب بالتحسين الذاتى لا العرضى.

أسلوب المبالغة:

أما المبالغة بأنواعها الثلاثة من تبليغ، وإغراق، وغلو، فلا مرية فى أن التحسين فيها ذاتى يقتضيه المقام وتحتمه الأغراض.

فقول ابن الرومى يهجو بخيلا[1]:

لو أن قصرك يابن يوسف ممتل ∴ إبرا يضيق بها فناء المنزل
وأتاك يوسف يستعيرك إبرة ∴ ليخيط قد قميصه لم تفعل

فهذا تصوير لابد منه فى الوصول إلى غرضه من وصف مهجوه بمنتهى البخل والبلوغ فيه إلى أحط دركاته، فليس أهون من الإبر فى البذل والعطاء ولاسيما إذا كانت وافرة كثيرة، وليس أمعن فى الشح وأبلغ فى اللؤم من الضن بإبرة واحدة على من يستوجب حاله الإيثار والذل لرتق الخرق وضم الممزق ولاسيما إذا كان نبيا، ولئن كان ابن الرومى مبالغا فى هذا الوصف فإن مقام الهجاء اللاذع المقذع مما يستدعى توفير أشنع صفات الذم للمذموم والمبالغة فيها حتى يكون الهجاء أوجع وأقذع، وبمقياس المبالغة فى صفات الذم يقاس الهجاء علوا وإيجاعا وقوة وإحكاما.

وقول عمرو بن الأهتم التغلبى:

ونكرم جارنا ما دام فينا ∴ وتتبعه الكرامة حيث مالا

تصوير حسن لبلوغه فى إكرام الجار حدا يأباه معتاد الناس، وينكره معروفهم، إذ المألوف أن الجار يكرم ما دام جارا، فإن مال مال عنه الكرم وانقطع العطاء، ولكن هؤلاء يخرجون على ميزان العادات فيبلغون فى الكرم هذه المرتبة. إذ أن عطاءهم يفيض على جارهم ما دام فى جوارهم، فإن مال عنهم إلى جانب آخر لاحقته الكرامة وتعقبه العطاء أينما حل وأقام، ولا ريب فى أن مقام الفخر

(١) الصبغ البديعى، صـ٤٨٤ ، ٤٨٥ .

مما يستدعى هذا الإغراق، وكلما بولغ فيه كان أمكن وأقوى، وأظهر وأعرف.

وقول الله تعالى: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾[1] تصوير لابد منه لبيان ما بلغه هذا الزيت من الصفاء والبريق، واللمعان والإشراق بحيث يقرب من الإضاءة ولو لم تمسسه نار، فلو قيل: إنه صاف جدا أو نقى نقاء معدوم النظير ما بلغ فى تصوير الحال التى هو عليها مبلغ الآية الكريمة.

وبهذا فقد استبان لنا فى جلاء ووضوح أن أساليب المبالغة المقبولة مما تقتضيها المقامات وتعود على الكلام بالتحسين الذاتى.

أسلوب السجع:

لا مرية فى أن أسلوب السجع يعود على الأسلوب بالتحسين الذاتى لا العرضى، إذا اقتضاه المقام وتحتمته الأغراض، فقول الرسول ـ ﷺ ـ : "أيها الناس أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام"[2] فأنت لا تجد هنا لفظا اجتلب من أجل السجع، وترك ما هو أحق بالمعنى منه وأبر به وأهدى إلى مذهبه".

ومن ثم فقد طلب المعنى السجع واقتضاه المقام، وفائدته أنه يخامر العقول مخامرة الخمر، ويخدر الأعصاب إخدار الغناء، ويؤثر فى النفوس تأثير السحر، ويلعب بالأفهام لعب الريح بالهشيم، لما يحدثه من النغمة المؤثرة والموسيقى القوية التى تطرب لها الأذن، وتهش لها النفس، فتقبل على السماع من غير أن يداخلها ملل أو يخالطها فتور فيتمكن المعنى فى الأذهان، ويقر فى الأفكار، ويعز لدى

---

(١) سورة النور : ٣٥ .

(٢) رياض الصالحين، ليحيى بن شرف النووى صـ٣٥٦، تعليق/ مصطفى عمارة ، دار إحياء الكتب العربية بمصر.

العقول، وكان كل أولئك مما يتوخاه البلغاء ويقصده ذوو البيان واللسن، فكان السجع مما يستدعيه المقام وتوجبه البلاغة[1].

وهكذا تبين لنا من هذا العرض الموجز لأساليب البديع أن جمهورها الغالب وثيق الصلة ببلاغة الكلام، وأن مكانه من الغرض ومحله من التحسين ذاتى أصيل لا شائبة للعرضية فيه ما دام مقياس الذاتية والعرضية عند العلماء هو اقتضاء المقام أو عدم اقتضائه. فشرط حسنه: أن يقل، ويأتى فى الكلام عفوا من غير كد ولا استكراه، ولا تكلف وبعد وميل إلى جانب الركة، فإن خالف شرطا من هذا خرج عن حد البلاغة، ومما سبق تبين لنا أنه ينطبق عليه هذه الشروط أيضا، ثم إن البديع يكفيه فخرا أنه أتى فى كتاب الله منه الشئ الكثير، ومنه فى كلام الرسول الكم الوفير، حتى عده قوم أنه من وجوه الإعجاز فى القرآن الكريم.

(١) الصبغ البديعى، صـ٤٩٧ .

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد النبى الأمين، وعلى آله وأصحابه والتابعين، تابعيهم بإحسان إلى يوم الدين ٠

وبعد

فإنه يمكننا ــ بعد هذا التطواف مع منزلة البديع ومقامه فى الحسن ــ أن ندون هذه النتائج المهمة:

أولا: أن البديع ليس ترفا فى الأسلوب الأدبى، أو حلية تكون بمثابة الفضول التى يستغنى عنها، حتى يكون مكانه فى المؤخرة من عناصر العمل الفنى، ولا هو يأتى بعد استيفاء البلاغة لعلمى المعانى والبيان، بل منزلته لا تقل شأنا عنهما ٠

ثانيا: أن الخطيب القزوينى لم يوف البديع حقه حينما جعله ذيلا من ذيول البلاغة، وذنبا من أذنابها، بينما جعله الإمام عبدالقاهر الجرجانى فى أكرم مكان من البلاغة وأرفعه؛ إذ المقياس عنده: متى كانت العبارة من مقتضيات المقام ويتطلبها النظم فهى من البلاغة فى الصميم ٠

ثالثا: جل المحسنات البديعية وثيق الصلة ببلاغة الكلام، وأن مكانه من الغرض ومحله من التحسين ذاتى أصيل، لا شائبة للعرضية فيه، ما دام مقياس الذاتية والعرضية عند علماء البلاغة هو: اقتضاء المقام أو عدم اقتضائه ٠

رابعا: أن البديع هو الغاية من العلوم الأدبية كلها، فهو فى الذروة منها، وهو خلاصة الخلاصة، وصفو الصفو ٠

خامسا: أن كثرة البديع أو قلته ليست سببا فى الحسن أو القبح، وإنما التكلف فى استخدامه هو الذى يهوى بمنزلة البديع العالية ٠

سادسا: أن البديع وجه من وجوه الإعجاز فى القرآن الكريم، أو على أقل تقدير هو باب من أبواب البراعة، وجنس من أجناس البلاغة.

هذا: ويبقى ـ بعد هذا البحث المتواضع حول منزلة البديع ـ أن نؤمن إيمانا راسخا أن البديع من البلاغة فى الصميم، وأن حسنه فى الكلام ذاتى أصيل. والحمد لله فى الأولى والآخرة، وله الفضل والمنة.

دكتور/ حسينى على عطوة الزهيرى

الأحد ٣ من صفر ١٤٢٩هـ

١٠ من فبراير ٢٠٠٨م

المصادر والمراجع

١ - القرآن الكريم.

٢ - أسرار البلاغة للإمام عبدالقاهر الجرجانى، تحقيق/ محمد عبدالمنعم خفاجى، ط ثالثة، ١٩٧٩م.

٣ - الأطول لعصام الدين الإسفراييني، مطبعة أحمد كمال.

٤ - الإيضاح فى علوم البلاغة، للخطيب القزوينى، ضمن "بغية الإيضاح" للشيخ/ عبدالمتعال الصعيدى، مكتبة الآداب ١٩٩١م.

٥ - البديع فى ضوء أساليب القرآن، للدكتور/ عبدالفتاح لاشين، ط أولى، دار المعارف سنة ١٩٧٩م.

٦ - البديع، لابن المعتز، طبعة دار المسيرة، بيروت، وط كراتشكوفسكى.

٧ - بغية الإيضاح، للشيخ/ عبدالمتعال الصعيدى، مكتبة الآداب، سنة ١٩٩١م.

٨ - البلاغة تطور وتاريخ، للدكتور/ شوقى ضيف، ط ثامنة، دار المعارف.

٩ - البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى، للدكتور/ محمد أبوموسى، دار الفكر العربى للطباعة والنشر.

١٠ - البيان والتبيين، للجاحظ، تحقيق/ عبدالسلام محمد هارون، الشركة الدولية للطباعة، سنة ٢٠٠٣م.

١١ - تاريخ علوم البلاغة، للأستاذ/ أحمد مصطفى المراغى، ط أولى ١٩٥٠م.

١٢ - الترغيب والترهيب، للمنذرى، مطبعة مصطفى الحلبى.

١٣ - تفسير النسفى،دار إحياء الكتب العربية لعيسى البابى الحلبى.

١٤ - حاشية الدسوقى على مختصر السعد، ضمن "شروح التلخيص"، دار السرور، بيروت، لبنان.

١٥ - الخصائص، لابن جنى تحقيق د/ محمد على النجار.
١٦ - رياض الصالحين، ليحيى بن شرف النووى، تعليق/ مصطفى عمارة، دار إحياء الكتب العربية بمصر.
١٧ - زهر الربيع فى المعانى والبيان والبديع، للشيخ/ محمد مصطفى المراغى.
١٨ - صحيح البخارى، دار الفكر.
١٩ - الصبغ البديعى فى اللغة العربية، للدكتور/ أحمد إبراهيم موسى ، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر بالقاهرة ١٩٦٩م.
٢٠ - الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز،للإمام يحيى بن حمزة العلوى، تحقيق/ محمد عبدالسلام شاهين، طبعة كاملة فى مجلد واحد،دار الكتب العلمية،بيروت،لبنان،١٩٩٥م.
٢١ - عروس الأفراح لبهاء الدين السبكى، ضمن "شروح التلخيص" دار السرور ، بيروت .
٢٢ - عقود الجمان، للسيوطى، ومعه "حلية اللب المصون على الجوهر المكنون" للأخضرى.
٢٣ - العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده، لابن رشيق القيروانى، تحقيق الشيخ/ محمد محيى‌الدين عبدالحميد، ط دار الجيل ، بيروت، لبنان، سنة ١٩٨١م.
٢٤ - فن البديع، للدكتور/ عبدالقادر حسين، ط أولى ، دار الشروق، ١٩٨٣م.
٢٥ - القاموس المحيط، للفيروزآبادى، ضبط وتوثيق/ يوسف الشيخ محمد البقاعى، مجلد واحد، طبعة دار الفكر ، سنة ١٩٩٥م.
٢٦ - كتاب "الصناعتين"، لأبى‌هلال العسكرى، تحقيق/ مفيد قميحة، ط ثانية، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٩م.

٢٧ - الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، للزمخشرى، ط أولى، دار الفكر، بيروت، لبنان، سنة ١٩٧٧م.
٢٨ - متن التلخيص، للخطيب القزوينى، المطبعة الجمالية بحارة الروم بمصر.
٢٩ - مختصر سعدالدين التفتازانى، ضمن "شروح التلخيص"، دار السرور، بيروت.
٣٠ - المصباح فى المعانى والبيان والبديع، لابن مالك، تحقيق/ حسنى عبدالجليل يوسف، مكتبة الآداب، سنة ١٩٨٩م.
٣١ - المطول ، لسعدالدين التفتازانى، ومعه حاشية السيد على المطول، مطبعة أحمد كمال سنة ١٣٣٠م.
٣٢ - مفتاح العلوم ، لأبى يعقوب السكاكى ، تحقيق / نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان.
٣٣ - من منابع البلاغة بين الأسرار والدلائل، للدكتور/ حسن إسماعيل عبدالرازق، ط أولى، دار الطباعة المحمدية، سنة ١٩٨٦م.
٣٤ - الموازنة بين أبىتمام والبحترى، للآمدى، تحقيق/ السيد صقر، ط رابعة، دار المعارف ١٩٩٢م.
٣٥ - مواهب الفتاح ، لابن يعقوب المغربى، ضمن "شروح التلخيص"، دار السرور، بيروت.
٣٦ - نقد الشعر، لأبىالفرج قدامة بن جعفر، تحقيق أد/محمد عبدالمنعم خفاجى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
٣٧ - النقد المنهجى عند العرب، للدكتور/ محمد مندور، مطبعة نهضة مصر، سنة ١٩٤٨م.
٣٨ - الوساطة بين المتنبى وخصومه، للقاضى الجرجانى ، تحقيق/ هاشم الشاذلى ، دار إحياء الكتب العربية لعيسى البابى الحلبى.

الفهارس

أولا : القرآن الكريم

الآية	السورة	الصفحة
١٩٤	البقرة	١٦٦٥
٢٦	آل عمران	١٦٥٩ ، ١٦٧٩
٤٤	هود	١٦٥٢
٨٨	هود	
٣٢، ٣٣	النحل	١٦٧٩ ، ١٦٨٠
١٤	المؤمنون	١٦٨٠
٣٥	النور	١٦٨٣
٢٢	النمل	١٦٥٢ ، ١٦٧٧
٤٠	الشورى	١٦٦١
٤٧	الذاريات	١٦٨٠

ثانيا: الحديث الشريف

الحديث	الصفحة
١ - أن رجلا أتى النبى ـ ﷺ ـ فقال: يا رسول الله: إنى أبدع بى فاحملنى، أى انقطع بى لكلال راحلتى.."	١٦٣٥
٢ - قول الرسول ـ ﷺ ـ:"إن الله لا يمل حتى تملوا"	١٦٦١
٣ - قول الرسول ـ ﷺ ـ : "أيها الناس أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام"	١٦٨٣

ثالثا: الأمثال العربية

المثل	الصفحة
"الضد أقرب خطورا بالبال عند ذكر ضده، كما أن الضد يظهر حسنه الضد"	١٦٦٠

رابعا : الشعر

القافية	القائل	الصفحة
الباء		
مذهب	أبوتمام	١٦٥٠
الكتائب	النابغة الذبيانى	١٦٦٢
الدال		
بساعد	ــ	١٦٤٩
الراء		
والمطر	أحمد بن أبى طاهر	١٦٤٤
غضنفرا	أبوالطيب المتنبى	١٦٧٨
البشر	العرجى	١٦٦٣
أنت حر	ــ	١٦٦٠
فيك كبر	ــ	١٦٦٠
والحذر	أحمد بن أبىطاهر	١٦٤٤
والقمر	~	١٦٤٤
والقدر	~	١٦٤٤
الصاد		
قميصا	الرقعمى أحمد بن محمد الأنطاكى	١٦٦١، ١٦٦٢
العين		
ببديع	الأحوص	١٦٣٥
اللام		
المنزل	ابن الرومى	١٦٨٢
تفعل	~	١٦٨٢
مالا	عمرو بن الأهتم التغلبى	١٦٨٢

القافية	القائل	الصفحة
النون		
أودعانى	أبو الفتح البستى	١٦٥١
الهاء		
انجذابه	حميد الأرقط	١٦٣٥
جبابه	~	١٦٣٥
ركابه	~	١٦٣٥